الجزء الخامس

رئاسة كلينتون

الفصل 11

كلينتون يسهّل الأمور

لم يأت، أبداً، رئيس إلىٰ السلطة، وقد تأبط مجموعة واعدة من الظروف لتعزيز عمليَّة السَّلام بين إسرائيل وجيرانها العرب، مثل بيل كلينتون. فالسَّلام بين مصر وإسرائيل كان قد توطّد، بعد أن صمد أمام الغليان الإقليمي في عقد الثمانينات. والقومية العربية الثورية، كالتي جسّدها الزعيم العراقي صدَّام حسين، كانت قد فقدت مصداقيتها. وخسر المتطرّفون الإسرائيليون معركة الانتخابات عام 1992: التي أعادت البراغماتي المتمرس إسحاق رابين إلىٰ السلطة. صحيح أن المتشددين الإسلاميين كانوا مناهضين لفكرة مفاوضات السَّلام ما بين العرب وإسرائيل، ولكنهم كانوا لا يمثّلون إلاَّ تياراً معارضاً من حيث المبدأ، وكانت السلطة الحكومية، في معظم الدول العربية، ما تزال في أيدي القوميين الذين يؤيدون، بدرجات متفاوتة من الحماسة، ما كان يدعى مسيرة مدريد لإقامة السَّلام.

وفي حين بدت الظروف الإقليمية حافلة بالأمل، كان الرئيس الجديد حديث عهد بالسياسة الخارجيَّة. فكلينتون، شأنه شأن حكام آخرين أصبحوا رؤساء للبلاد ـ مثل جيمي كارتر ورونالد ريغان ـ أقام شهرته على معالجة القضايا الداخلية، وليس على السياسة الخارجيَّة. وهو، خلافاً لريتشارد نيكسون وجورج بوش، لم يكن يملك الدربة الطويلة في واشنطن، والتي تتضمن تعقيدات قضايا الأمن القومي. ولما كانت الفترة التي قضاها كلينتون حاكماً

لولاية أركينساس هي مجرد سنتين، لذا كان عليه ـ كي يبقى في منصبه ـ أن يُعاد انتخابه كل سنتين. وهو قد فعل ذلك ست مرات، ولم يخسر إلاَّ مرة واحدة. ولم يكن من المبالغة القول، إن حياة كلينتون السياسية كانت حملة مستمرّة منذ أواخر السبعينيات[1]. وكان وسيماً ذا حضور إعلامي، لافتاً للنظر، وطموحاً. ولم يكن يتصور، إلاَّ قلة من الناس عام 1991، أنه يمكن لأي ديمقراطي أن يهزم جورج بوش ذا الشعبية العريضة. ولكن كلينتون كان يرى إمكان تحقيق ذلك، واستطاع في السباق الأولي، أن يكسب الانتخابات في مواجهة خصوم كبار الشأن، بمن فيهم الغريب الأطوار روس بيرد. أما كيف كان سيتعامل مع السياسة الخارجيَّة بشكل عام، والشرق الأَوسط بشكل خاص، فذاك لغز.

قال أحد مستشاري السياسة الخارجيَّة، الذي التقى كلينتون خلال الفترة الانتقالية، إنه يستطيع أن يكون الرئيس الذي يساعد على تحقيق أربع اتفاقيات للسلام العربي ـ الإسرائيلي. وكان جواب كلينتون أنه يود تحقيق ذلك، ولكنه لا يحيط بدرجة كافية بعد، بالقضايا التي سيكون تجاهها في وضع يمكنه من الحكم على قدرته على ذلك، أم لا ـ وكان ذلك تصريحاً نزيهاً في ظل تلك الظروف. وهذا يعني، أن كلينتون، في مقاربته لتحدي إقامة السَّلام العربي الإسرائيلي، سيكون معتمداً، أكثر من كثير من الرؤساء، على مستشاريه وعلى حساباته الخاصة، بعد أن بدأ يدرس مواقف الأطراف المختلفة. ولم يكن أحد يشك أن كلينتون سريع التعلم، وأنَّه قادر تماماً، على أن يُدهش حتى أكثر خبراء السياسة الخارجيَّة دراية. ولكنه لم يكن هناك أحد على ثقة ما، إذا كان لديه فكرة واضحة، إلىٰ أين يريد أن يتوجه بالسياسة الخارجيَّة في عصر ما بعد الحرب الباردة، الملتبس.

---

(1) David Maraniss, First in His Class: The Biography of Bill Clinton (Simon & Schuster, 1995), pp. 387-418. فكرة الحملة الدائمة مأخوذة من الفترة: 1982 ـ 1984 عندما كان كلينتون خارج العمل وكان يخطِّط للعودة بمساعدة المستشار السياسي ديك موريس.

كان نائب الرئيس كلينتون، آل غور، عضواً في الكونغرس، وكان معروفاً بموالاته التامة لإسرائيل. ولكن، لم يكن من الواضح ماذا كان يعني هذا، في ظروف عام 1993. اتجه كلينتون ـ لدى اختياره لوزير خارجيَّته ـ إلىٰ الخبير المحنك في إدارة كارتر ـ أحد القلائل المقرَّبين حوله ـ وارين كريستوفر، النائب السابق لوزير الخارجيَّة، والمحامي المحترم، والذي ربما كانت شهرته، تعود إلىٰ دوره في التفاوض في صفقة أدّت إلىٰ تحرير الرهائن الأَمريكيين المعتقلين في إيران، في الفترة 1980 ـ 1981. وكانت قوة كريستوفر تكمن في خبرته وحسن إدراكه، ولكن قدرته على الاضطلاع بدور قيادي في السياسة الخارجيَّة، كانت أكثر من مبهمة، وذلك يعود جزئياً، إلىٰ طابعه الشخصي الذي لا يوحي بالثقة بالنفس[2].

ووقع اختيار كلينتون لمنصب مستشار الأَمن القومي، على أنطوني ليك، وهو أستاذ ذو خبرة واسعة في عالم السياسة الخارجيَّة، ولكن بدون خلفية خاصة تتعلَّق بالشرق الأَوسط. وكان نائبه صاموئيل (ساندي) بيرغر، ناشطاً سياسياً ماهراً، عرف كلينتون منذ سنوات، وكان مشهوراً بتعاطفه مع جماعة «السلام الآن» الحمائمية في إسرائيل.

وفي ما يتعلَّق بالخبرة بشؤون الشرق الأَوسط، فهي قد توفرت، بالدرجة الأولى في هذه الإدارة الجديدة، في أربعة رجال هم: دينيس روس، ومارتين أندري، وصامويل لويس، وإدوارد جيرجيان. وكان روس، قد عمل في البيت الأبيض والبنتاغون ووزارة الخارجيَّة، في فترة رئاستي ريغان وبوش. ورافق جيمس بيكر إلىٰ البيت الأبيض في آب/ أغسطس 1992، عندما تولى الأخير الإشراف على حملة إعادة انتخاب بوش. وهكذا، فقد بدا من المدهش بعض

---

(2) للاطلاع على مزيد من آرائه انظر: In the Stream of History: Shaping Foreign Policy for New Era (Stanford University Press, 1998) وهو استكمال الخطبة مع بعض التعليقات حول الشرق الأَوسط كما في الفصول 4 ـ 13 ـ 14 ـ 34.

الشيء، أن يُطلب من روس، البقاء إلىٰ جانب وزير الخارجيَّة الجديد، كمستشار خاص لشؤون الشرق الأَوسط. وكان روس، قد اختير للاضطلاع بإدارة مركز الأبحاث القوي النفوذ، والموالي لإسرائيل، وهو «معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى» (WINEP)، والذي كان مديره السابق، أنديك، قد استدعي من قبل ليك، لتولي شؤون الشرق الأَوسط في مجلس الأَمن القومي. وكان كل من انديك وروس معروفين جيداً في واشنطن، كما كانت آراؤهما منشورة في مطبوعات معهد واشنطن المذكور، ومن المعروف عن كليهما، أنَّهما من أشد المعجبين برابين[3].

وعيّن سام لويس رئيساً لدائرة التخطيط في وزارة الخارجيَّة. وكان قد عمل عدة سنوات، سفيراً لبلاده في إسرائيل، ويعرف خفايا المسرح السياسي فيها، كشأن عدد قليل من الأَمريكيين. وطلب كريستوفر من إدوارد جيرجيان البقاء كي يتولى منصب مساعد الوزير لشؤون الشرق الأدنى. وكان جيرجيان موظفاً اختصاصياً في وزارة الخارجيَّة، ذا خبرة خاصة بشؤون سورية، حيث عمل فيها سفيراً. وقد لعب كل من لويس وجيرجيان أدواراً مهمة في السنة الأولى من رئاسة كلينتون، قبل أن ينتقلا إلىٰ مناصب أخرى خارج الحكومة.

يمكن للمرء أن يتوقع من مستشاري كلينتون أن يدعموا نهج مدريد في المفاوضات، مع تأكيد شديد على أن يبدأ رابين بالخطوة الأولى، مع توفير المساندة الكاملة له في المسائل الأمنية. وعندما أخذت تتردد فيما بعد، عبارات من مثل: «الولايات المتّحدة لا تريد السَّلام أكثر من الأطراف المعنيين»، وأن الدور الأَمريكي يقتصر على «تسهيل المفاوضات بين الأطراف، وليس فرض آرائه»، وأن الولايات المتّحدة سوف تحاول المساعدة على «تقليص المخاطر

(3) كانت أهم دراسة صادرة عن (معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى ـ WINEP, 1988) والتي ساهم فيها روس واندیك هي Building for Peace: An American Strategy for M. E. انظر المناقشة في الفصل العاشر.

بالنسبة إلىٰ إسرائيل» وهي تتجه نحو السَّلام، اكتشف كثيرون أنَّها عبارات لروس وأنديك. فهذان الرجلان كانا هما المهندسين الفكريين للسياسة، حتى وإن كان كلينتون وكريستوفر هما اللذين يتخذان القرارات النهائيَّة.

كشفت حملة كلينتون الانتخابية من أجل الرئاسة، عن كثير من مكامن قوته، كما كشفت أيضاً عن بعض مواقع ضعفه. كان كلينتون شديد الوضوح، ماهراً في استخدام وسائل الإعلام، مُريحاً، في التعامل مع الآخرين من مختلف المستويات، ومفعماً بالحيوية والنشاط. أما بوش فقد بدا، على النقيض من ذلك، مُتْعَباً ومملاً. ولكن كلينتون واجه، بدوره، تهماً بالزِّنا والتهرّب من الخدمة العسكرية، وتدخين المخدرات، ولم تفلح تفسيراته المتقنة كثيراً، لسلوكه، في منحه صفة الاستقامة. لقد وجد فيه نُقّاده نقاط ضعف، ومع هذا، فإن مكامن ضعفه لم تكن قاتلة. ولعله، منذ نيكسون، كان رئيس البلاد الأكثر تعرّضاً للانتقادات، في شخصه واستقامته.

أبدى كلينتون، أثناء حملته الانتخابية، موقفاً متميزاً في تأييده لمباحثات مدريد، بشأن السَّلام في الشرق الأَوسط، ولكنه، انتقد بوش وبيكر على ضغوطهما الوحيدة الجانب على إسرائيل. وكانت النقطة الأكثر بروزاً في انتقاداته، هي برنامج ضمانات القرض بقيمة 10 بليون دولار، الذي ربطه بوش بشروط. واعتبر كلينتون ذلك ضغطاً ظالماً على دولة حليفة، منوّهاً بأنّه لن يقوم بشيء كهذا، في ظروف مشابهة. ولكن من حسن حظ كلينتون، أن رابين كان في منصب رئيس الوزراء، عندما أصبح هو رئيساً، وأن برنامج ضمان القرض كان قد عاد إلىٰ المعمل. وبدا أن كل هذا كان ضرورياً من أجل إعادة الأطراف إلىٰ مائدة التفاوض، بعد الفجوة التي أحدثتها الانتخابات الأَمريكيَّة، وقرار رابين بطرد النشطاء الأربعمائة التابعين لحماس ـ المجموعة الإسلامية الفلسطينية الثورية ـ من غزّة إلىٰ جنوب لبنان. وكان يتعيّن أن تُحلَّ هذه المسألة قبل أن تبدأ المفاوضات، ولكن، لا أحد في واشنطن الرسمية، بدا أنه يفكر بوجود

حاجة ماسّة إلىٰ استراتيجية جديدة، بكل ما في هذه العبارة من معنى.

تدلّنا الذاكرة المعاصرة، على أن كل رئيس جديد كان يبدأ ولايته بمراجعة القضايا الخارجيَّة والداخلية الكبرى التي تواجه بلاده. ومن حين إلىٰ آخر، كان وزير الخارجيَّة يقوم بجولة تشمل أهم عواصم العالم، ثم يتقاطر الزعماء على واشنطن لمقابلة الرئيس الجديد «وجهاً لوجه». وهذه الاتصالات الأولية، مهمّة في الغالب، لأنّها تساعد كبار صانعي السياسة على تقرير أين يضعون أقدامهم، وأي الزعماء يرون أنه يمكن العمل معهم، وكيف يقومون بذلك. وقد اتبع كلينتون هذا النهج، وأرسل كريستوفر إلىٰ أوروبا والشرق الأَوسط، على الفور. وأمكن تحقيق بعض الليونة، بشأن المأزق المتعلق بطرد نشطاء حماس.

خُلقت الأزمة التي نشبت في البوسنة في بداية عام 1993، والتي تنامت مع تفكك يوغوسلافيا، عامل منافسة في تجاذب الاهتمام مع الشرق الأَوسط. وكان بعضهم يأمل أن تأخذ أوروبا زمام القيادة في التعامل مع أزمة البوسنة، ولكن، كان هناك ما يدعو إلىٰ الشك في قدرة الأوروبيين على العمل معاً، بدون شيء من التدخل الأَمريكي. فخلال الأشهر الأولى من رئاسة كلينتون، احتلت هذه المسألة مركز الصدارة من الاهتمام، وكذلك مسألة كيفية التعامل مع روسيا الآن، بعد أن وضعت الحرب الباردة أوزارها، كما توحي الأمور. ونظراً لأهمية قضايا الأَمن الأوروبي هذه، لم يكن من الواضح ما إذا كان السَّلام العربي ـ الإِسرائيلي سيحتل مكاناً مهماً في جدول أعمال كلينتون. بيد أن كريستوفر كان يرى فرصة ما، وألح على الإِدارة الجديدة، أن تكرّس شيئاً من الموارد والوقت للشرق الأَوسط. ولكن الدور الأَمريكي، في رأيه، ينبغي أن يقتصر على مساعدة الأطراف في التوصل إلىٰ اتفاق، وليس بحملهم على ذلك. وقد بدا هذا، فكرة معقولة، وخاصة بالنسبة إلىٰ رئيس متردد في التعامل مع قضايا الشرق الأَوسط الثقيلة الوطأة.

كان أحد الأهداف المعلنة لجولة كريستوفر، هو إعادة المفاوضات إلىٰ مسارها. وهذا يعني، عملياً، التطرّق إلىٰ عدة مجالات مختلفة من المفاوضات، كل مجال منها له منطق مختلف، ومعدل سرعة مختلف، بدرجة أَو بأخرى. وقد أُعطي المسار الإسرائيلي ـ الفلسطيني جُلَّ الاهتمام، وهو ما كان يعتبر، من الناحية الفنية، جانباً من التفاوض الإسرائيلي ـ الأردني ـ الفلسطيني. وهنا، كانت المشكلة الكبرى تتمثَّل، في أن الفلسطينيين الذين كانوا يتحدَّثون مع الإسرائيليين، لم يُخولوا بسلطة واسعة من قِبل منظّمة التّحرير الفلسطينية، التي كانت تصر على أنَّها ـ هي وحدها ـ التي تستطيع أن التصرّف باسم الشعب الفلسطيني. وكان الإسرائيليون يرفضون، علناً، التعامل مباشرة مع رئيس «المنظّمة» ياسر عرفات وزملائه، رغم أن المرء يمكن أن يجد بعض التساهل، في موقف حكومة إسحاق رابين ووزير الخارجيَّة شمعون بيريز. فعلى سبيل المثال، أجاز الكنيست في وقت مبكر من عام 1993، تشريعاً يرفع العقوبات القانونية عن الإسرائيليين الذين يمكنهم التحدّث إلىٰ مسؤولين في م. ت. ف. وكانت جماعة ميريتس، الداخلة في ائتلاف حكومة رابين، قد دعت صراحة، إلىٰ إجراء محادثات مع م. ت. ف والاعتراف بحق الفلسطينيين في تقرير المصير. وباتت الاتصالات غير الرسمية ـ ما بين إسرائيليين وأفراد فلسطينيين ينتمون إلىٰ «المنظّمة» ـ من الأمور العادية في المؤتمرات واللقاءات العامة التي تجري في أوروبا أَو غيرها.

ومع هذا، فقد كانت المحادثات الإسرائيلية ـ الفلسطينية في واشنطن في بداية 1993، ما تزال متوقفة عند نقطة ما إذا كان سيسمح للمنظمة بالخروج من حجرة الانتظار إلىٰ القاعة الأمامية. ففي هذا الشأن، لم يكن قد تحقَّق إلاَّ اليسير من التقدّم الجوهري.

كانت المسارات الأخرى لمفاوضات مدريد تشمل سورية ولبنان والأردن، كما كانت تشتمل على المحادثات المتعددة الأطراف، والتي تتناول

الحدّ من الأَسلحة، والتعاون الاقتصادي، والأَمن، والبيئة، واللاجئين. وكان الخبراء يجتمعون في أوقات منتظمة، والتقارير التي تتحدَّث عن تلك الاجتماعات، تشير إِلىٰ، بعض التقدّم، ولكن لم يكن أحد يتوقع الوصول إِلىٰ اتِّفاقيات على صعيد الأطراف المتعددة، قبل أن تجتاز المفاوضات الثنائية العقبات السياسية الأساسية في طريق السَّلام. ومع هذا، فإن جهوداً كبيرة كانت تكرّس من أجل نطاق واسع من النشاطات المرتبطة بالسَّلام، ولا يحتاج المرء للإفراط بالتفاؤل، حتى يرى الفائدة في بناء هذه الشبكات من الخبرة، من جانب إِسرائيل والدول العربية، وأوروبا، واليابان، والولايات المتّحدة.

لم يكن المسار السوري ـ الإِسرائيلي مشابهاً، مطلقاً، للمسار الإِسرائيلي ـ الفلسطيني[4]. فأولاً، كان من الواضح منذ انطلاقة إِدارة كلينتون، أن الرئيس السوري حافظ الأسد، ورابين، لن يفوضا فريقيهما المفاوضين بكثير من الصلاحية. فمن أجل تحقيق تقدم، لا بد أن يتم ذلك من خلال الوساطة بين الزعيمين القويين. وكان كريستوفر قد سارع إِلىٰ التأكيد على أنه مستعد لأن يكون الوسيط بينهما، وأن يعود إِلىٰ كلينتون كي ينال دعمه عند الضرورة. فطوال مدة السنوات الأربع، التي أمضاها في منصب وزير الخارجيَّة، قام بحوالي 20 جولةً إِلىٰ الشرق الأوسط، في محاولة لإحداث اختراق على الصعيد الإِسرائيلي ـ السوري. كما التقى كلينتون بكل من الأسد ورابين، وكان يتحدث معهما، من وقت إِلىٰ آخر، على الهاتف. وكان الفريقان المتفاوضان في واشنطن، يحقِّقان من حين إِلىٰ حين بعض التقدّم. ولكن القرارات الكبيرة كانت دوماً في يد الأسد ورابين.

---

(4) للاطلاع على رواية إِسرائيلية موثوقة عن المفاوضات السورية ـ الإِسرائيلية كتبها السفير رابين في واشنطن وكبير المستشارين في الشؤون السورية ايتامار رابينوفيتش، انظر The Brink of Peace: The Israeli-Syrian Negotiations (Princton University Press, 1998). وكذلك هيلينا كوبان: The Israeli-Syrian Peace Talks: 1991-1996 (Washington, D. C.: US Institute of Peace, 1999).

سرعان ما بدا واضحاً، أن محادثات سلام بين إسرائيل ولبنان، لا يمكن أن تنطلق حتى تكون سورية وإسرائيل يسيران سيراً حسناً، على طريق السَّلام بينهما. فالأَسد لم يكن، ببساطة، مستعداً للتخلي عن ورقته اللبنانية، حتى يحصل على تنازلات من إسرائيل في مرتفعات الجولان، والتي كان يتطلع إليها. كما لم يكن الأردن مستعدّاً، على نحو مشابه، للوصول إلىٰ اتِّفاق مع إسرائيل، قبل الفلسطينيين، ولكن المشاكل هنا، كانت أقل تعقيداً بكثير، وبدا من الواضح أن المفاوضات لن تكون صعبة، عندما تجعل الشروط السياسية السَّلام الإسرائيلي ـ الأردني، ممكناً. والأهم من ذلك، أنَّه لم تكن ثمة قضية تتعلَّق بالأَراضي بحيث يختلف حولها الجانبان، نظراً لأن الأردن قد تخلَّى عن أي ادعاء بالسيادة على الضفَّة الغربيَّة أَو القدس[5].

على ضوء هذه الحقائق، تركّزت السياسة الأَمريكيَّة على تشجيع المحادثات الإسرائيلية ـ الفلسطينية في واشنطن، مع محاولة إيجاد شريك تفاوضي فلسطيني «محترم» في نظر إسرائيل بديلاً عن م. ت. ف. وحاول الأَمريكيون، مفترضين أن إسرائيل لن تقبل بالمنظّمة، أن يشجعوا بديلاً فلسطينياً لا ينتمي إلىٰ «المنظّمة». وكان فيصل الحسيني وحنان العشراوي يعتبران، من ضمن الجهد المبذول، لإيجاد شخصيات فلسطينية يفترض أنَّها مستقلة، وذات سمعة طيبة[6]. وكان عرفات، بالطبع، عالماً باللعبة، ومتأكداً أنهما لن يتحركا بدون إرادته. وكانت النتيجة، هي الوصول إلىٰ حائط مسدود في قناة واشنطن التفاوضية، في ربيع 1993.

ثمة سبب آخر للجمود على المسار الإسرائيلي ـ الفلسطيني، وهو أن

---

(5) تضمنت المسألة الوحيدة التي تتعلَّق بالأراضي بين الأردن وإسرائيل بعد 1988 رسم الخط الفعلي للحدود في منطقة البحر الميت، وهو خلاف كان يدور حول بضع عشرات من الفدادين فقط.

(6) انظر حنان عشراوي: The Side of Peace: A Personal Account (Simon & Schuster 1995) pp. 229-229.

الفريقين كانا يقاربان المفاوضات من زاويتين مختلفتين تماماً. فالإسرائيليون كانوا مهتمين باتفاق مرحلي يشترون به الوقت، والذي يمكن أن يهدىء الأوضاع، ويسمح بظهور قيادة فلسطينية معتدلة في الضفَّة الغربيَّة. وكانوا يعتقدون أن هذا، كل ما يمكن فعله، في سياق فترة الترتيب المرحلي، البالغة خمس سنوات، والتي نص عليها اتِّفاق كامب ديڤيد عام 1978. أما القضايا، التي توصف بأنها قضايا الوضع النهائي، والتي كانت موضع انقسام داخل المجتمع الإسرائيلي، فيمكن تأجيلها إلىٰ وقت لاحق. أما الفلسطينيون فكانوا يرون، على النقيض من ذلك، أن النقطة المهمة، هي اكتساب الاعتراف بالمنظّمة، بوصفها الممثِّل الوحيد للشعب الفلسطيني، وفرض مسألة الدولة كهدف نهائي بأسرع وقت ممكن. وبالإضافة إلىٰ ذلك، كانت م. ت. ف، من أجل تلبية اهتمامات السكان في الضفَّة الغربيَّة وغزّة، بحاجة إلىٰ الظهور بأنها قادرة على إنهاء الاحتلال الإسرائيلي، وعلى الحد من مصادرات الأراضي وبناء مستوطنات جديدة.

وعندما واجه الأمريكيون هذه الأهداف المتباعدة، تماماً، في المفاوضات، عزموا، بقوة، على الوقوف إلىٰ جانب الإسرائيليين، مُصرين على الحاجة إلىٰ اتخاذ خطوات عملية صغيرة أولها (إجراءات بناء الثقة)، يتبعها اتِّفاق حول فترة انتقالية، ثم اتِّفاق، في مرحلة لاحقة، حول قضايا الوضع النهائي، وهو ما يُعتبر الأهم في أذهان الفلسطينيين. ولما كان الفلسطينيون هم الطرف الضعيف، فقد كان أقصى ما يستطيعون الحصول عليه، هو مجرد السير قدماً، في النهج الإسرائيلي ـ الأمريكي. أو هذا ما كانت تعتقده واشنطن[7].

---

(7) نزل كلينتون عند رغبة رابين منذ أول لقاء. انظر صمويل د. لويس:

«The U. S. and Israel: Evolution of an Unwritten Aliance», Middle East Journal, vol. 53 (Summer 1991) p. 370,

حيث يكتب عنهما: «سرعان ما تحولت علاقاتهما الشخصية إلىٰ صداقة وثيقة، كان للأكبر والأكثر خبرة منهما وهو رابين الكلمة الأولى، حيث أوضح لكلينتون الاستراتيجية الدبلوماسيَّة التي كان يريد أن يتبعها ويحصل على تأييد كلينتون الفوري لها».

كان للمسار الإسرائيلي ـ السوري منطق مختلف تماماً. فكلا الطرفين كان يدرك أن المقايضة الأساسية، تشابه ما تم على الصعيد المصري ـ الإسرائيلي. فإسرائيل تطلب السَّلام، والعلاقات الطبيعية، والأمن، وترتيبات تتعلَّق بالمياه ـ والتوقيت. والسوريون، يصرون على استعادة سيادتهم الكاملة على مرتفعات الجولان. وحالما يتم الاتِّفاق على هذه المبادىء العامة، يمكن إجراء التفاوض على تفاصيل المقايضة وصياغة الاتِّفاق. أي أن المفاوضات، باختصار، سوف تركّز بصورة أولية على نقطة نهاية المسيرة، ثم تعود إلىٰ الخلف[8]. وعلى النقيض من ذلك، كانت المباحثات الإسرائيلية ـ الفلسطينية، ستسير، بدون تفاهم واضح إلىٰ أين يتوجه الطرفان.

بدأ المسؤولون في واشنطن، يشعرون بالقلق في ربيع 1993، جراء جمود الحركة على مسار المباحثات الإسرائيلية ـ الفلسطينية. فقد بدا كلا الطرفين كمن يستعرض، ويحاول استرضاء جمهوره، ويمتنع عن المفاوضات الجدية التي يتم فيها الأخذ والعطاء. وأضحى بيّناً، أن عرفات لم يترك لفريقه في واشنطن، أي منفذ للمناورة، وكان مصمماً على إظهار أنه لا يمكن تحقيق أي تقدّم، حتى يوافق الأَمريكيون ـ والإسرائيليون ـ على التعامل معه مباشرة، وكان هذا على وجه الدقة، ما بدأ الإسرائيليون يفعلونه، ولكن سرّاً، وفي الوقت ذاته، يبتعدون عن عرفات نفسه.

وخلال ربيع 1993، وافق رابين وبيريز على السماح لعدد من الإسرائيليين بالاجتماع، تحت الرعاية النرويجية، بفلسطينيين كانوا يعملون فعلاً باسم عرفات[9]. وما بدا أشبه بقناة غير رسمية، سرعان ما تحول إلىٰ قناة رسمية،

---

(8) أعلم رابين كريستوفر في 3 آب/ أغسطس 1993 أنه يريد أن يستطلع مع الأَسد ماذا ستفعل سورية في قضايا الأمن والسلام، مفترضاً أن «طلبه سيكون مقبولاً» وهو ما قد يعني أن إسرائيل كانت ترغب في النظر بالانسحاب من الجولان في مقايضة للأرض بالأمن. انظر: Rabinovich, «The Brink of Peace», pp. 104-105.

(9) ثمة روايات كثيرة تتناول مفاوضات أوسلو منها: =

بعد أن انضم مساعدون لبيريز ورابين إلىٰ المناقشات في الربيع. وسرعان ما تم التفاوض على اتّفاق إطار، وخلال الصيف، كان وزير الخارجيَّة النرويجي يوهان هولست، يحثّ الفريقين على تجاوز ما تبقّى من عقبات، والموافقة على إعلان اعتراف متبادل. كل ذلك كان يتم بتكتم شديد، وإن كان الأَمريكيون قد أُحيطوا علماً بالصورة العامة.

في الأيام الأولى من شهر آب/ أغسطس 1993، كان على رابين الاختيار ما بين السير قُدُماً على الجبهة الفلسطينية الواعدة، والتي لا تزال سرية، أَو محاولة الوصول إلىٰ اتّفاق إطار مع سورية. وكان مقتنعاً أنّه لا يستطيع التحرّك على كلتا الجبهتين، في وقت واحد، وهو افتراض، بدا أن الأَمريكيين لم يستشاروا به. فقد ذهب كريستوفر إلىٰ دمشق، في الرابع من آب/ أغسطس، كي يجرب عرض رابين «الافتراضي» بإعادة الجولان مقابل السَّلام والأَمن. ووجد الأَمريكيون في جواب الأَسد ما يشجع، وكانوا توّاقين للاستمرار على المسار السوري ـ الإسرائيلي. بيد أن رابين كان يفكر على نحو آخر. فالأَسد أراد أن يقيده بكثير من الشروط[10]. ولهذا، قرَّر رئيس الوزراء الإسرائيلي، على نحو مفاجيء تعليق المباحثات مع سورية، والاتجاه، بدلاً من ذلك إلىٰ الجبهة الفلسطينية.

= - Jane Corbin, «The Norway Channel: The Secret Talks that led to the Middle East Peace Accord» (Atlantic Monthly Press, 1994).

- David Makovsky, «Making Peace with the PLO: The Rabin Government's Road to the Oslo Accord» (Boulder, Colo, Westview Press, 1995),

- Mark Perry, «A Fire in Zion: The Israeli-Palestinian Search for Peace» (New York: Morrow, 1994),

بالإضافة إلىٰ المرجع الأكثر موثوقية:

- Uri Savir, «The Process: 1100 Days That Changed the Middle East» (New York: Random House, 1998).

(10) رابينوفيتش، مرجع سبق ذكره، ص 106 ـ 108.

وقبل نهاية شهر آب/ أغسطس بوقت قصير، طار بيريز وهولست إلىٰ كاليفورنيا لإبلاغ كريستوفر المذهول، أنه قد تم التوصل إلىٰ اتّفاق حقيقي. وكان ذلك «اتفاق أوسلو» الشهير، أول اتّفاق عربي ـ إسرائيلي منذ 1967 يتم التفاوض عليه، بدون مشاركة ذات شأن، من جانب الولايات المتّحدة. هل كان ذلك علامة على أن الدور الأَمريكي لم يعد ضرورياً، وأن المباحثات المباشرة بين الأطراف يمكن الاعتماد عليها الآن لإيصال المسيرة السلمية إلىٰ اتّفاق ناجح؟ بعضهم كان يرى أن الجواب نعم، وأن أوسلو قد أظهرت حكمة الاستراتيجية الأَمريكية بالبقاء بعيداً؛ وبالقيام بدور المسهل للأمور، لا الوسيط. فيما شكّك آخرون في أن يكون الطريق قُدُماً مفروشاً بالزهور. ولكن، كلاً من المتشككين والمتفائلين، تدفقوا على الحديقة الجنوبية للبيت الأبيض في 13 أيلول، 1993، ليروا كلينتون، وهو يشرف على توقيع أول اتّفاقية سلام إسرائيلية ـ فلسطينية، ويحضّ عرفات ورابين على المصافحة.

قد لا يكون كلينتون قد فعل الكثير من أجل تحقيق اتّفاق أوسلو، ولكنه كان مُضيفاً كريماً، ومدير احتفال مدهش. لقد أراد أن يبيّن أن الولايات المتّحدة ستكون مستعدة، وراغبة في تقديم يد المساعدة، لتحقيق خطوات أبعد على طريق السَّلام العربي ـ الإسرائيلي، السَّلام الذي بدا الآن لبعض الناس أمراً محتوماً[11]. والحق، أن كلينتون، بعد وقت قصير من الاحتفال في البيت الأبيض، قد ساعد على حشد دعم اقتصادي دولي بقيمة بليوني دولار، على مدى بضع سنوات، لتنمية الضفَّة الغربيَّة وقطاع غزّة، من ضمنها 500 مليون دولار، مساهمة من الولايات المتّحدة.

---

(11) أخبر كلينتون رابين، عندما دعاه إلىٰ البيت الأبيض للاحتفال بالتوقيع، أن الدور الأَمريكي سيكون من الآن فصاعداً المساعدة على تخفيف المخاطر التي تواجهها إسرائيل في صنع السَّلام. وكان كلينتون سريعاً في التقاط أهمية التقاء رابين وعرفات وجهاً لوجه. وقد عارض بعض مستشاري كلينتون الفكرة. (مقابلة مع مسؤول سابق في البيت الأبيض 13 أيار/ مايو 1999).

اتّفاق أوسلو وعقابيله

كان معظم ما اتفق عليه الإسرائيليون والفلسطينيون في «اتّفاق أوسلو» متوافقاً مع نهج كامب ديڤيد بالبدء بفترة انتقالية مدتها خمس سنوات، ثم الانتقال إلىٰ مناقشة قضايا الوضع النهائي المتعلّقة بالحدود، والسيادة، والحد من التسلح، واللاجئين، والقدس[12]. وكان لهذا مزية نظرية، من حيث جعل الطرفين يؤجلان الجدل حول مسائل عسيرة حقاً، مع اكتساب خبرة في إدارة علاقتهم الجديدة، عن طريق معالجة الترتيبات الأمنية والإدارية العملية التي ينبغي التغلّب عليها، قبل أن يتم تحقيق السَّلام الدائم.

لقد ذهب «أوسلو» أيضاً أبعد من كامب ديڤيد من عدة نواح. فهو قد تضمن أولاً اعترافاً إسرائيلياً بمنظّمة التّحرير الفلسطينية بوصفها الممثِّل الشرعي للشعب الفلسطيني. وقد كان هذا أمراً لا يمكن تحقيقه، عندما كان ليكود في السلطة. وهو قد أعاد، ثانياً، مساحة صغيرة من الأَراضي إلىٰ السيطرة المباشرة لـ م. ت. ف، ابتداء بغزّة وأريحا. وهكذا بات لدى الفلسطينيين، في مرحلة مبكرة، قاعدة جغرافية يستطيعون فيها أن يشرعوا بتنظيم دولتهم المستقبلية، التي كانوا يحلمون بها. صحيح أن هذه البقعة من الأرض كانت محاطة بالإسرائيليين، وصغيرة الحجم، وتعجّ بفلسطينيين بائسين اقتصادياً، ولكنّها كانت مجرد بداية. وإذا سار كل شيء على ما يرام، فسيكون هناك انسحابات إسرائيلية أخرى من مدن وبلدات فلسطينية، في غضون وقت قصير، وسيستفيد الاقتصاد من المعونات الخارجيَّة، وسيّجمد الاستيطان الإسرائيلي، ولن يمضي وقت طويل، حتى تكون مفاوضات الوضع النهائي قد بدأت. وقد كان كل واحد يعرف أن المسائل المتبقية عسيرة جداً على الحل، ولكن ثمة محرمات قد

(12) من أجل الاطلاع على نص اتّفاقية أوسلو، انظر www, brokings, edu. Peace Process .htm

تحطمت، وجرت مفاوضات ناجحة، وصار لدى المتفائلين سبب للاعتقاد بأن التاريخ بات في أيديهم[13].

وكما بدا كارتر فزعاً قليلاً عندما شقّ الرئيس المصري أنور السادات طريقه الخاص، بعيداً إلى القدس في تشرين الثاني/ أكتوبر 1977، بدا كلينتون غير واثق من طبيعة دوره، بعد أن استضاف عرفات ورابين في البيت الأبيض. وكان ثمة رأي قوي يقول: إن «أوسلو» هو اتّفاقهم، وبات يقع على عاتقهم الآن، كيف يجعلون هذا الاتّفاق ينجح. ستحاول الولايات المتّحدة أن تساعد على حشد الدعم، وسط الأسرة الدولية، وتساهم مادياً في مساعدة السلطة الفلسطينية، وتستأنف علاقتها المعلقة مع م. ت. ف، ولعلها قد تساعد في المرحلة التالية من المفاوضات. بيد أن الكثير، من القضايا التي كان ينبغي تبرير وضعها، كانت ذات طابع فني للغاية. ولم يكن لدى الولايات المتّحدة خبرة نسبية حول أفضل طريقة لتعامل إسرائيل مع السلطة في غزّة، وحول حجم قوة الشرطة الذي ينبغي أن يُسمح للمنظمة به، أو ما هو مصير المستوطنات الإسرائيلية القريبة. وحتى الخط الفاصل الذي يحدد أراضي غزّة وأريحا ينبغي أن يُرسم، ولكن هذه، مسألة يصعب أن نتوقع من الولايات المتّحدة أن يكون لها رأي فيها. قد يستطيع كلينتون وكريستوفر، في أفضل الأحوال، أن يحثّا الفريقين على عدم الاستسلام إذا ما خربت الأمور، وربما قد يقترحان بعض الحلول الوسط، إذا ما استطاع الفريقان تضييق الفروق بينهما بكفاءة. ولكن «أوسلو»، خلافاً لكامب ديڤيد، لم يكن اتّفاقاً من تخطيط أمريكي، ولهذا، لا يوجد مسوغ كاف بالنسبة للفريقين، كي يتوجها إلى واشنطن عندما تنشب

(13) أظهرت استطلاعات الرأي، أن كلاً من الإسرائيليين وفلسطينيي الضفة الغربية، كانوا يؤيدون اتّفاق أوسلو منذ البداية، انظر آشر اريان، «الجمهورية الثانية» السياسة في إسرائيل (كاتنا House, NJ Publishers, 1998 (Catham ص 365 «خليل شقاقي» السّلام الآن أو حماس فيما بعد» مجلة فورين أفيرز تموز/ يوليو/ آب/ أغسطس 1998).

الخلافات بينهما. وعلى أية حال، فإنَّهما كانا قد أظهرا قدرة مؤثرة في تعاون أحدهما مع الآخر. ومن الأفضل توزيع الجهود الأَمريكيَّة على جبهات أخرى، كالمسار السوري ـ الإِسرائيلي المتوقف[14].

كانت الثقة بأن الإِسرائيليين والفلسطينيين يستطيعون حقاً دفع المفاوضات قُدُماً في محلها. ففي أوائل أيار 1994، تم التوصل إِلىٰ اتِّفاق، مع إسهام أَمريكي بسيط، حول كيفية تنفيذ اتِّفاق أوسلو. وهذا ما دعي بـ «اتِّفاق القاهرة»، وهي تسمية تعكس دور مصر المساعِد، في هذه المرحلة من صنع السَّلام[15]. وترجع أهمية اتِّفاق القاهرة، إِلىٰ أنه كان بمثابة نقطة البدء، لفترة الخمس سنوات الانتقالية. وكان من المقرر أن تبدأ مباحثات الوضع النهائي في وقت لا يتجاوز أيار 1996، وأن يكون أيار 1999 هو النهاية المتوقعة للمرحلة الانتقالية[16]. وبالإِضافة إِلىٰ ذلك، فقد فتح الاتِّفاق الجديد الباب، أمام عرفات للعودة إِلىٰ غزّة، مع كثيرين من رفاقه في م. ت. ف. ولسوف تحظى المنظّمة الآن، بفرصة الشروع ببناء مؤسسات الدولة المستقبلية، ببطء، ولكن بثقة، وهي الدولة التي طالما تحدّثت عنها. ولسوف يبدأ الإِسرائيليون بالاعتياد على وجود كيان فلسطيني صغير إِلىٰ جوارهم.

فيما شُرع بتنفيذ اتِّفاق القاهرة، كانت استراتيجيتا الإِسرائيليين والفلسطينيين متباعدتين بصورة حتمية، ولهذا، توجهوا معاً إِلىٰ الولايات

---

(14) يقول كريستوفر (في كتابه مجرى التاريخ، ص 80) إنه حاول في خطبة ألقيت في 20 أيلول/ سبتمبر، 1993، أن يعلم السوريين أن انخراط سورية قد لا يكون أولوية فورية».

(15) من أجل الاطلاع على النص انظر موقع بروكنغز على الإنترنيت (سبق ذكره).

(16) أحد عوامل الالتباس في اتِّفاق القاهرة أنه لم يتناول بصراحة ماذا يحدث عندما لا يتم التوصل إِلىٰ اتِّفاق حول الوضع النهائي في نهاية المرحلة الانتقالية، وهذا ما أصبح مسألة مستمرة في بداية 1999 عندما أكد الفلسطينيون أن من حقّهم إقامة دولتهم المستقلة بعد 4 أيار/ مايو 1999 في حين اعترضت الحكومة الإِسرائيلية قائلة إن مثل هذا العمل سيكون خرقاً للاتِّفاق ويبيح لإِسرائيل أن ترد بإلحاق أراض في الضفَّة الغربيَّة.

المتّحدة، طلباً للمساعدة. كان رابين يريد إبطاء الأمور، وأن يسمح لناخبيه أن يعتادوا على الحقائق الجديدة، وأن يركز على المسار السوري ـ الإسرائيلي ذي الأهمية الاستراتيجية الكبيرة. ولم يكن مستعجلاً على تقديم مزيد من التنازلات في الضفَّة الغربيَّة، وأن يُفاجأ بشكل خاص، بمحاولة بعض الفلسطينيين المناوئين للسلام، بشنّ هجمات ضد إسرائيل من أراضٍ جرى أخلاؤها مؤخراً. والأكثر من ذلك، أن رابين كان يعرف أن بعض الإسرائيليين قد يعترضون على تسليم أي جزء مما يعتقدون أنَّه «أرض إسرائيل»، وأراد أن التأكّد من وضعه الداخلي، قبل مواجهة ذلك التحدي، وعلى أية حال، فقد كان رابين معروفاً بتحركه الحذر، ومن المؤكد أنه أراد امتحان عرفات قبل أن يقدِّم تنازلات أخرى.

كان رابين مهتماً، منذ وقت طويل، بإمكان التوصّل إلىٰ اتِّفاق مع الأَسد، على الرغم من خيبة أمله من موقف الأَسد في آب/ أغسطس 1993. وكان بيريز، ومن حوله، من المتحمسين حقاً لعقد صفقة مع م. ت. ف، وكان رابين يجاريهم عن غير رغبة، إلىٰ حد ما. فالجبهة السورية، ذات قيمة استراتيجية كبيرة قائمة، ولدى سورية جيش عامل ضخم، ولديه مدرعات وصواريخ وأَسلحة كيميائية. وليس هناك، أية دولة مجاورة لإسرائيل، تشكِّل مثل هذا الخطر العسكري على إسرائيل.

وكان رابين قد شرع يُسوِّغ عمليَّة السَّلام بأسباب استراتيجية، بالدرجة الأولى. فالاتِّفاق مع سورية، سيكون في صالح أمن إسرائيل على نحو واضح. وكان منحى تفكيره على الشكل التالي: سيكون مصدر التهديد المحتمل لإسرائيل في المستقبل، من جانب الثورة الإسلامية، وقد تستخدم فيه الصواريخ والأسلحة النووية. ولا يحتمل أن يشكل جيران إسرائيل المباشرين تهديداً كبيراً، مثل تهديد العراق أو إيران. ومن أجل مواجهة مثل هذه التهديدات البعيدة ـ كما حدث في عام 1991 ـ سيكون من المهم أن تحظى

إسرائيل بحلفاء إقليميين كمصر وتركيا والأردن، وربما حتى سورية. ففي مواجهة إسرائيل مع العراق، قبل بضع سنوات، كانت سورية في النهاية حليفاً ضمنياً. والسلام مع سورية، لن يقلّص التهديد المباشر الآتي من الشمال فحسب، ولكنه قد يفتح باب السَّلام مع لبنان، وتحقيق علاقات أفضل مع البلدان العربية في شمال أفريقيا والخليج العربي أيضاً. كان ذاك على الأقل منحى تفكير رابين، في تأييده لاستراتيجية بعيدة المدى، للتفاوض حول سلام شامل مع جيران إسرائيل.

عرف رابين أن الأَسد زعيم جدي يمكن التعامل معه، وقد وافقه على ذلك الأَمريكيون. فاتِّفاق الجولان، كان موضع احترام دقيق، على مدى عشرين عاماً. ولكن الأَسد كان أيضاً حذراً، وصارماً، ومحدّد النظرة تماماً. ولم تكن لتحركه مناشدة للتاريخ، أَو رؤية شرق أَوسط جديد. كان موقفه واضحاً: فهو يصر على استعادة مرتفعات الجولان بكاملها، وعلى موقع متميّز في لبنان، وإزالة المستوطنات الإسرائيلية من الجولان؛ وبالمقابل، لم يكن راغباً بالذهاب أبعد من إنهاء رسمي لحالة الحرب، يماثله بالسَّلام. أما رابين، بالمقابل، فكان يصر على طلبه في تحقيق ترتيبات أمنية بعيدة المدى، وعلى ضمانة بعدم العبث بمنابع نهر الأردن، وعلى جدول زمني مطول للتنفيذ، وعلى رموز محسوسة قدر الإمكان للسلام، بما في ذلك بعض أشكال الدبلوماسيَّة العلنية، للمساعدة في إقناع الشعب الإسرائيلي بأن السَّلام مع سورية أمر ممكن[17].

التقى كلينتون مع الأَسد في جينيف في 16 كانون الثاني/ يناير، 1994.

(17) يشير رابينوفيتش في كتابه «حافلة السلام» ص 121، إلى أن الموقف الأَمريكي في هذا الوقت كان مؤيداً لانسحاب إسرائيلي كامل من الجولان في مقابل رؤية معدلة للرزمة السورية التي صورها رابين في آب/ أغسطس 1993. وقد شهد الفصل الأول من عام 1994 انشقاقاً أَمريكياً ـ إسرائيلياً حول المسار السوري.

وخلال مؤتمر صحفي مشترك، كان الأَسد عازفاً عن الذهاب أبعد من الكلام الطنان عن «سلام الشجعان»، ولكن كلينتون سانده، وأكّد أنه فهم أن الأَسد يعني سلاماً كاملاً، مع علاقات طبيعية. ولقد وجهت الانتقادات إلىٰ كلينتون، لأنه وضع الكلمات في فم الأَسد، ولكن أولئك الذين يعرفون الأَسد، لم يساورهم أي شك، في أنه اتخذ القرار مبدئياً بالعمل مع الأَمريكيين، ليرى ما إذا كان بالإمكان تحقيق صفقة بشروطه. واستطاع كلينتون في السر، أن يحصل من الأَسد على شيء من تغيير موقفه، بالنسبة لتوقيت تطبيع العلاقات[18]. وكانت استجابة رابين لهذه التطورات مشوبة بالحذر، ولكنَّها لم تكن سلبية بصورة مطلقة. وأشار إلىٰ أنَّه، في مرحلة معينة، سوف يُجري استفتاء وطنياً حول إعادة مرتفعات الجولان إلىٰ سورية. ورأى السوريون في هذا، شرطاً آخر غير مقبول، ولكنه كان بالنسبة للإسرائيليين، إشارة على أن الانسحاب من الجولان قد يكون احتمالاً مستقبلياً حقاً.

كان اتِّفاق سوري ـ إسرائيلي يقوم على تبادل الأرض مقابل السَّلام، أمراً مألوفاً بالنسبة للدبلوماسيين الأَمريكيين. فهو، من عدة وجوه، سيكون مشابهاً للصفقة التي تمّ التوصل إليها في عامي 1978 ـ 1979 بين السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن. ولما كان الأَسد ورابين لم يتوصلا بعد إلىٰ شروط المباحثات، فقد بدت الوساطة الأَمريكيَّة ضرورية. فالدور الأَمريكي سيكون حاسماً، بطريقة أَو بأخرى، في صياغة اتِّفاق مبادىء، وربما في إنجاز التفاصيل أيضاً. فقد برهن هنري كيسينجر وبيكر على إمكان التفاوض مع الأَسد، ولكن لم يدّعِ أي منهما أن ذلك بالأمر السهل. ولقد كان كريستوفر، مع هذا، مستعداً لتكريس الكثير من وقت وطاقته، على مدى العام التالي، لتحقيق اتِّفاق بين هذين الخصمين.

في شهر آب/ أغسطس 1993، قام رابين بخطوة حاسمة ساعدت على

(18) مقابلة مع مسؤول سابق في البيت الأبيض، في 13 أيار/ مايو، 1999.

فتح باب المفاوضات، على الجبهة السورية، بإطلاق احتمال عودة الجولان. بغضّ النظر كم كان ذلك مشروطاً بحذر، بمطالب إسرائيلية أخرى. وبعد تأخر دام بضعة شهور، بات كريستوفر مستعداً، في ربيع 1994، لاستئناف المباحثات بين الأَسد ورابين. وخلال الفترة من 18 تموز/ يوليو وحتى 21 منه، 1994، قام كريستوفر بجولة مكوكية ما بين إسرائيل وسورية، ونجح في الوصول إلىٰ توضيح لمسألة الأَراضي، والتي تُعرف الآن بـ «مسألة 4 حزيران الفاصلة»، إشارة إلىٰ خط رسم حدود الهدنة قبل حرب الأيام الستة[19]. وكان هذا يعني، ترضية لمطلب سورية بالانسحاب الكامل. ولكن التوضيح لم يبيِّن مدى سرعة انسحاب القوات الإسرائيلية من الجولان، وما هي الترتيبات الأَمنية التي ستتخذ ومراحل الوصول إلىٰ السَّلام والتي ستترافق مع الانسحاب الإسرائيلي. ولكن السوريين اعترفوا بأَهميّة رسالة رابين، واستعادت المفاوضات نشاطها.

وقام كريستوفر بزيارة إلىٰ دمشق، لمقابلة الأَسد ثانية في شهري آب/ أغسطس وتشرين الأول/ أكتوبر. وفي 27 تشرين الأول/ أكتوبر وصل كلينتون، الذي كان قد جاء إلىٰ الشرق الأَوسط ليرعى توقيع المعاهدة الأردنية ـ الإسرائيلية في اليوم السابق، إلىٰ دمشق لمقابلة الأَسد. ولم يكن اللقاء ناجحاً، ذلك أن كلينتون شعر أن الأَسد قد أخلف وعداً بإدانة الإرهاب علانية. ومع هذا، فإن كلينتون، عندما كان رابين في زيارة إلىٰ واشنطن، بعد ذلك بشهر،

---

(19) Itamar Rabinovich «Waging Peace: Israel and The Arabs at the End of the Century (New York: Farrar Straus and Giroux, 1991) p. 64:

في 19 تموز/ يوليو (1994) تم إيجاد صيغة لرسم خطوط 4 حزيران/ يونيو وفقاً للاقتراح الشرطي الافتراضي الأصلي الذي طرح في آب/ أغسطس 1993 يمكن الاطلاع على أدق تحليل لخط 4 حزيران/ يونيو 1967 في كتاب فريدريك س. هوف «خطة المعركة، حدود السَّلام؟ خط 3 حزيران/ يونيو 1967» (واشنطن د. سي) (Middle East Insight-1999) ويشكل خط الرابع من حزيران/ يونيو معضلات بالنسبة للإسرائيليين لأنه يلامس بحيرة طبريا في الطرف الشمالي الشرقي ويمكن بالتالي أن يبدو وكأنه يمنح السوريين حقوق المشاطئة في المياه.

من أجل إجراء مزيد من المباحثات، أعلم ضيفه أنه سيحاول إقناع الكونغرس بتأييد وجود قوات أَمريكيَّة لحفظ السَّلام في الجولان، إذا كان ذلك ضرورياً لأمن سلام إسرائيلي ـ سوري[20]. وكان ذلك مؤشراً قوياً على أن المباحثات قد تركّزت على قضايا أمنية حاسمة. وفي غضون أسابيع، عاد كريستوفر إلىٰ دمشق، وفي نهاية شهر كانون الأول/ ديسمبر، بدأت المفاوضات النظامية بين وفدين: إسرائيلي وسوري في واشنطن. وكانت جميع المظاهر تشير إلىٰ أن ثمة صفقة إسرائيلية ـ سورية يجري إعدادها. ولكن البحث في التفاصيل، كان شاقاً إلىٰ حد الإرهاق.

السَّلام الإسرائيلي ـ الأردني

شرع كل من إسرائيل والأردن، بعد توقيع اتِّفاق أوسلو مباشرة، بإعداد اتِّفاق تمهيدي يصلح إطاراً لمفاوضات سلام. فعلى مدى الشهور السبعة التالية، التقى دبلوماسيون من كلا الجانبين، بمساعدة من الأَمريكيين أحياناً، من أجل التوصّل إلىٰ نص لمعاهدة سلام. وفي 24 تشرين الأول/ أكتوبر 1994، تم توقيع معاهدة السَّلام، بوجود كلينتون. وكان بوسع المرء أن يشعر، في أعقاب ذلك مباشرة، بأن درجة العلاقة بين البلدين، ستكون أدفأ من علاقة إسرائيل المحتملة مع أي من جيرانها الآخرين. وهناك سببان لذلك: أولهما، أن الملك حسين ورابين كانا قد اجتمعا سراً، طوال سنوات، وتوصلا إلىٰ درجة عالية من التقدير المتبادل[21]. والثاني، أن الملك حسين كان قد أسقط ادعاء الأردن بالضفَّة الغربيَّة والقدس، وبالتالي، فإن المسائل المتعلقة بالأَراضي بين إسرائيل والأردن لم تعد ذات شأن. وكان المفاوضون، بالتأكيد، ما يزالون بحاجة إلىٰ

(20) يقول رابينوفيتش في كتابه «حافة السلام» ص 165 ـ 167 إن ليكود حشد أنصاره بقوة داخل الكونغرس الأَمريكي لمعارضة فكرة القوات الأَمريكيَّة في الجولان.

(21) انظر في شاليم: The Iron Wall: Israel and the arab World since 1948 (New York ww Norton 1999) وخاصة الفصل 13.

حل عدد من المسائل الصعبة، ولكن المشكلة الرئيسية تمثَّلت في إيجاد محيط سياسي، بحيث يستطيع الملك حسين توقيع معاهدة سلام مع إسرائيل، دون أن يُتهم بالخيانة، من قِبل العرب الآخرين. وكانت حقيقة أن م. ت. ف قد دفعت اتِّفاقيتين من قبل، وأن الأَسد كان منغمساً في مفاوضات مع إسرائيل بنشاط، وأن عراق صدَّام حسين ما يزال يلعق جراحه التي أُثخن بها في حرب الخليج عام 1991، تعني أنه ما كانت لترتفع إلاَّ أصوات قليلة في العالم العربي تعارض السَّلام الجديد. ولقد أكّدت المعاهدة، إلىٰ حد كبير، ما كان يعرفه الكثيرون من قبل ـ وهو أن حالة سلام فعلي، كانت قائمة بين إسرائيل والأردن، منذ زمن بعيد. وأضحى من الممكن الآن، بالنسبة لمواطني البلدين، الانتقال بسهولة، ذهاباً وإياباً، الأمر الذي أدَّى إلىٰ تدفق السواح الإسرائيليين، وإلىٰ شيء من رد الفعل السلبي من جانب الأردنيين، الذين ما يزالون يشعرون بالمرارة تجاه إسرائيل. أما الملك، فقد بدا في طليعة شعبه، في استعداده لفتح صفحة جديدة في العلاقات مع إسرائيل.

وجد بعضهم في السَّلام الإسرائيلي ـ الأردني نموذجاً لكيفية التفاوض وحلّ النِّزاع[22]. فالدور الأَمريكي كان متواضعاً، والطرفان تعامل أحدهما مع الآخر باستقامة وبصورة مباشرة، وقدما تنازلات متبادلة، وأوجدا مصالح مشتركة. وإذا كان ثمة شيء يمكن تعلمه هنا ذو صلة أوسع، فليس من المحتمل أن يكون الجبهتان السورية والفلسطينية حيث المسائل أكثر تعقيداً، وحيث فقدان الثقة ما يزال واضحاً. وخلافاً لذلك، كان من الممكن للجبهة اللبنانية أن تتخذ منحى مشابهاً. ولكن مصير اتِّفاقية عام 1983، التي أُجهضت في غضون سنة من توقيعها، أظهر أن أية صفقة ثنائية لا يمكن أن تصمد أمام

---

(22) Laura Zittrain Eisenberg and Neil Caplan. Negotiating Arab Israeli Peace: Patterns, Problems, Possibilities (Indiana University Press, 1998 pp. 90-10) انظر المفاوضات الأردنية ـ الإسرائيلية كنموذج يستحق المحاكاة.

معارضة سورية، ولكن، إذا استطاعت سورية التوصل إلىٰ سلام، فإن معاهدة إسرائيلية ـ لبنانية لن تتأخّر. فكما هو الحال بين إسرائيل والأردن، فإن غياب الخلافات الأساسية حول الشرعية والأراضي، سيجعل المفاوضات سهلة نسبياً.

نحو أوسلو 2

بدأت الاستراتيجية التفاوضية الإسرائيلية، وامتداداً، الاستراتيجية التفاوضية الأمريكيَّة، تجسد اعتبارات سياسية واضحة خلال عام 1995. فقد كان على كل من رابين وكلينتون، أن يواجهوا الانتخابات ثانية في 1996. ومن المفيد سياسياً أن يُظهرا أن عمليَّة السَّلام حية ومستمرة. ولا بد من بذل جهد كبير في عام 1995. ولكن على أية جبهة: الفلسطينية أم السورية؟ إذا لم تتحرّك المفاوضات بسرعة كافية، فهل سيكون هناك ما يُغري بتجميد الأمور حتى يجدد رابين ولايته؟.

كان الإسرائيليون أنفسهم منقسمين على نحو غريب، إزاء ما إذا كانت خطوة أخرى مع الفلسطينيين، أو اتِّفاقية مع سورية ستكون أفضل. وكان كثيرون داخل حزب العمل ميّالين إلىٰ التفاوض مع عرفات، لأنهم كانوا يعتقدون حقاً، أن إسرائيل باتت تحتاج إلىٰ أن تحرّر نفسها من إدارة شؤون الفلسطينيين اليومية في الضفَّة الغربيَّة. وكان كثير ممن عارضوا انسحابات جديدة في الضفَّة الغربيَّة، هم من اليمين، أو من المؤيدين المتدينين الذين يساندون ليكود في جميع الأحوال. وعلى خلاف ذلك، كان الجولان ذا أهمية استراتيجية، ومعظم المستوطنين هناك هم من مؤيدي حزب العمل. وبالإضافة إلىٰ ذلك، لا يزال الأسد يحجم عن أية رغبة في التعامل مباشرة مع إسرائيل. واستُبعدت أية محاولات لترتيب لقاء مباشر بين الأسد ورابين. وكان من الواضح أن رابين أراد أن تستمر عمليَّة السَّلام، ولكنه لم يكن راغباً بأن يواجه الانتخابات وقد قدم تنازلات كبيرة في كلٍ من الضفَّة الغربيَّة والجولان. فكما

حدث في آب/ أغسطس 1993، كان لا بد لإحدى الجبهتين أن تحوز الأولوية.

وفيما كان الدبلوماسيون الأَمريكيون يأملون أن يشهدوا تقدماً على كلتا الجبهتين، فقد بدا أنَّهم وافقوا على وجود حاجة أكثر إلحاحاً لمزيد من الانسحابات في الضفَّة الغربيَّة. فالجولان، في النهاية، كان مستقراً، وهو ما لا ينطبق على العلاقة المضطربة بين إسرائيل و«المنظّمة». والحق، أن الافتقار إلىٰ الشعور بالإلحاح فيما يتعلَّق بالمفاوضات حول الجولان، كان يشكّل معضلة على الدوام منذ 1974.

كانت الحقيقة التالية من القضايا التي ينبغي التصدي لها بين إسرائيل و«المنظّمة»، ذات طابع سياسي ومرتبط بالأَراضي. وكانت إسرائيل مستعدّة للانسحاب من مدن الضفَّة الغربيَّة الكبيرة ـ مثل نابلس والخليل ورام الله وبيت لحم وجنين وغيرها ـ مما سيوسع سلطة م. ت. ف لتشمل معظم سكان الضفَّة الغربيَّة، دون التعامل مع مسألة المستوطنين الإسرائيليين الحسَّاسة، الذين بلغ عددهم الآن ما يقارب 150 ألف مستوطن، دون أن يشمل هذا الرقم القاطنين في القدس الشرقية. وما أن يصبح الإسرائيليون خارج المدن، حتى يصبح بالإمكان إجراء انتخابات «السلطة الفلسطينية»، التي ستساعد على توفير الشرعية لعرفات، والتي يحتاجها لمتابعة عمليَّة التفاوض. ثم يتعهّد عرفات بشطب العبارات الواردة في الميثاق الوطني لـ م. ت. ف التي تدعو إلىٰ تدمير إسرائيل، وهي خطوة ذات أهمية رمزية في أعين الكثير من الإسرائيليين. وإذا ما جرى كل شيء على ما يرام، فسيكون بوسع رابين، عندئذٍ، أن يدخل الانتخابات في منتصف 1996، بسجل حافل من المفاوضات مع الفلسطينيين وراءه.

وجد رابين والأَمريكيون فائدة في المحافظة على مساري التفاوض الفلسطيني والسوري معاً، لبعض الوقت. فالأَسد، في النهاية، قد يبدي بعض

التساهل إذا ما رأى أن التحرك يجري على الجبهة الفلسطينية، وعرفات قد لا يرغب برؤية سورية تذهب أولاً. وكان يعتقد أن أياً من الأطراف لا يرغب بأن يكون في آخر القافلة. وخلال فترة طويلة من القسم الأول من عام 1995، كان كل من الأَسد وعرفات مُجاملاً، وبدا أنه يمكن إحراز التقدم على كلا الصعيدين.

ففي آذار/ مارس، على سبيل المثال، التقى كريستوفر، ثانية، بالأَسد، وسرعان ما أفادت الصحف أن سورية قد وافقت على إقامة نوع من العلاقات الدبلوماسيَّة مع إسرائيل، قبل الانسحاب الإسرائيلي الكامل من الجولان[23]. وفي أيار/ مايو، أفاد مسؤولون أَمريكيون بأن سورية قد تخلّت عن مطلبها، المتعلّق بأن تكون المنطقتان السورية والإسرائيلية المنزوعتا السلاح، متساويتين في المساحة. وبعد ذلك بوقت قصير، أكّد مسؤولون إسرائيليون أن الجولان يُعتبر أرضاً سورية[24]. ولكن أياً من الطرفين لم يكن مستعداً للسير سريعاً نحو الاتِّفاق، ولم تفعل واشنطن شيئاً لكسر الجمود.

وفي بداية تموز/ يوليو، بدا كما لو أن المسار الفلسطيني يتقدَّم بسرعة. فقد تحدث بيريز وعرفات عن موعد 25 تموز كتاريخ محدد لتوقيع اتِّفاق. ثم في 24 تموز فجَّر انتحاري قنبلة في تل أبيب، أسفرت عن مقتل خمسة إسرائيليين. وأعلنت «حماس»، الجماعة الفلسطينية الإسلامية الثورية، مسؤوليتها عن الهجوم. وردَّت إسرائيل على ذلك، بتعليق المفاوضات وإغلاق حدودها، وهو إجراء سوف يتكرر في المستقبل، مُذكراً بأن أية خطوة إلىٰ الأمام في صنع السَّلام، سوف تُجابه بمعارضة.

---

(23) نيويورك تايمز، عدد 1 نيسان/ أبريل، 1995.

(24) نيويورك تايمز، عدد 25 أيار/ مايو و29 أيار/ مايو 1995. وزعمت صحيفة فاينانشيال تايمز (لندن) عدد 4 تموز/ يوليو، 1995 أن سورية قبلت بمناطق منزوعة السلاح تتراوح نسبتها من ستة إلىٰ عشرة.

وعلى مدى الشهور التالية، استطاعت إسرائيل و«المنظّمة» أن يتوصلا إلىٰ وضع تفاصيل اتّفاقية معقّدة، أطلق عليها «أوسلو 2». وقُسمت أَراضي الضفَّة الغربيَّة إلىٰ ثلاث مناطق. وسيكون حوالي 3٪ من الأَراضي، بما في ذلك المدن الكبيرة، تحت السيطرة الفلسطينية الكاملة. وثمة مساحة تُقدَّر بـ 24٪، معظمها محيطة بالمدن وتتضمن عدة قرى، ستكون تحت السيطرة الفلسطينية المدنية، ولكن، ستظل إسرائيل هي المشرفة على شؤون الأَمن، والقسم الثالث والأخير، ويشمل معظم ما تبقّى من الأَراضي، بما في ذلك المستوطنات الإسرائيلية، فيبقى تحت السيطرة الإسرائيلية الحصرية. ولسوف تنسحب إسرائيل في غضون ثلاثة أشهر، باستثناء الخليل، حيث أثار المستوطنون الإسرائيليون في الجوار، مشاكل خاصة. كما ستجري ثلاثة انسحابات أخرى غير محددة، خلال السنوات القادمة قبل اتّفاق الوضع النهائي. وستجري انتخابات السلطة الفلسطينية، وهي تشريعية الطابع، وانتخاب الرئيس الفلسطيني في كانون الثاني/ يناير 1996. ولا تشمل ولاية السلطة الفلسطينية القدس الشرقية، ولكن الفلسطينيين القاطنين هناك، سيكون من حقّهم التصويت في إطار صيغة معقّدة. وأخيراً، سوف تطلق إسرائيل سراح المسجونين الفلسطينيين. وفي الثامن والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1995، وقّع رابين وعرفات الاتّفاق في واشنطن، بحضور كلينتون، والرئيس المصري حسني مبارك، والملك حسين[25].

بهذا الاتّفاق، أنهى رابين نشاطه قبل الانتخابات؛ إذ لن يكون ثمة تحرك آخر على صعيد الجبهة السورية، إلاَّ بعد الانتخابات. أما الأَسد، الذي لم يكن أبداً في عجلة من أمره، فقد بدا راضياً بهذا الإجراء، بصمت. وفي شهر تشرين الأول/ أكتوبر، شرعت القوات الإسرائيلية بالانسحاب من المدن، في الضفَّة

(25) للاطلاع على نص اتفاق أوسلو 2 ارجع إلىٰ موقع بروكنغز على الإنترنيت والذي سبقت الإشارة إليه.

الغربيَّة. وعند نهاية ذلك الشهر، قام عملاء إسرائيليون بقتل زعيم من منظمة «الجهاد» الإسلامية، وبعد ذلك ببضعة أيام، انفجرت قنبلة، وجرحت عدداً من الإسرائيليين. في هذا الجو المتوتر، حضر رابين وبيريز اجتماعاً حاشداً من أجل السَّلام في تل أبيب. وشارك الرجل الصارم، رابين، الجمهور في إنشاد أغنية للسلام. وفيما كان يغادر المسرح متجهاً إلىٰ سيارته، قام المتدين الإسرائيلي المتطرف، إيغال عمير، الذي كان يعارض مسيرة السَّلام، بإطلاق النار على رابين من الخلف. وسلم رئيس الوزراء الإسرائيلي الروح، بعد دقائق، تاركاً البلاد في ذهول الصدمة، من جراء حادث العنف غير المتوقع هذا، وكذلك عمليَّة السَّلام، بدون واحد من أكثر رجالها حسماً.

بعد رابين

كان شمعون بيريز، خليفة رابين، ملتزماً بالسَّلام كشأن أي ملتزم به في الحياة السياسية في إسرائيل. وكان قد شغل منصب رئيس الوزراء في منتصف الثمانينات، ولديه رصيد كبير من الخبرة، ولكنه لم يقد حزبه أبداً نحو النصر في الانتخابات. ومع هذا، فإن الأجواء التي أعقبت اغتيال رابين، وإدانة اليمين السياسي الإسرائيلي، على نطاق واسع لخلقِهِ أجواء أدَّت إلىٰ العنف، قد جعلت القليل يشك بنجاح بيريز في الانتخابات. وفي غضون تلك الفترة، كان تنفيذ الاتِّفاق الإسرائيلي ـ الفلسطيني جارياً.

من أجل تمهيد الطريق أمام مباحثات الوضع النهائي الختامية، المقرّر لها أن تبدأ في أيار/ مايو 1996، عيّن بيريز أحد مساعديه، يوسي بيلين ليقابل نائب عرفات، محمود عباس (أبو مازن). والتقى الرجلان سراً، واستكشفا في مخطط تمهيدي شكل اتِّفاق نهائي. ولم تكن لقاءاتهما مفاوضات رسمية، ولذا، لا ينبغي المبالغة في أهمية ما أنجزاه. ومع هذا، فإن مباحثاتهما قد ذهبت أبعد من أية مباحثات أخرى ذات طابع رسمي، في حسم أشد الخلافات صعوبة بين الجانبين. ولو تحقَّق السَّلام، عندما كان بيريز رئيساً للوزراء

وعرفات رئيساً لـ م. ت. ف، لكان اتفاقهما شبيهاً بما توصّل إليه الرجلان.

ووفقاً للرواية الموجزة للبيان نفسه، كان على إسرائيل أن تعترف بدولة فلسطينية منزوعة السلاح، مع كافة امتيازات السيادة. ولسوف تُلحِق إسرائيل، جزءاً من الضفَّة الغربيَّة على طول خطوط 1967، وبهذا تضم الكثير من المستوطنات، والغالبية الغالبة من المستوطنين الإسرائيليين (الذين يقارب عددهم مائة ألف مستوطن من أصل 140 ألفاً) تحت السيادة الإسرائيلية الكاملة؛ وستصبح هذه المستوطنات إسرائيلية بالكامل، شأنها شأن تل أبيب وبئر السبع. وسيتم الإلحاق في إطار تبادل للأراضي، بحيث يتم تعريض خصر إسرائيل الرفيع، ويتوسع الفلسطينيون بالمقابل، بأراضٍ على طول قطاع غزّة. أما المستوطنون الإسرائيليون، الذين لن يُلحقوا بإسرائيل، فسيكون لهم الخيار ما بين التعويض، أو العيش في الدولة الفلسطينية، مع ترتيبات أمنية خاصة بهم. وبالنسبة للاجئين، فلن يعود منهم أحد إلىٰ أرض إسرائيل، ولكن، لن يكون هناك قيود على الهجرة إلىٰ الدولة الفلسطينية.

وكانت القدس من أشد المسائل تعقيداً. وعند هذه النقطة، توصل بيلين وأبو مازن إلىٰ تفاهم مؤقت يتضمن التالي: يعترف الفلسطينيون بالقدس الغربية أرضاً إسرائيلية مستقلة، وعاصمة لإسرائيل؛ وهذا من شأنه، أن يؤدي إلىٰ اعتراف العالم بالقدس الغربية عاصمة لإسرائيل. وبالنسبة للفلسطينيين، فإن منطقة «القدس» الجغرافية، هي في واقع الأمر، أكبر من الحدود البلدية للقدس الإسرائيلية. ولهذا، فإن إسرائيل سوف تعترف بـ «القدس» عاصمة فلسطينية، أي ما سيشمل فعلياً منطقة مثل أبو ديس، التي تُعتبر الآن ضاحية من ضواحي القدس. أما القدس الشرقية، فسوف تعتبر من قبل كلا الجانبين، أرضاً متنازعاً عليها، وتبقى على وضعها الراهن إلىٰ زمن غير محدد، وستظل إسرائيل تمارس هناك، سيادة فعلية دون الاعتراف بذلك. وسيتمتع الفلسطينيون بوضع متميز في الحرم الشريف (جبل المعبد)، وهو ما يعكس أساساً الوضع الراهن، حيث

تتحكم السلطات الإسلامية بهذا الموقع. ولسوف تقسم مدينة القدس نفسها إلىٰ أقسام إدارية (مثل قسم عربي، وقسم لليهود الإسرائيليين المتطرفين دينياً، وقسم إسرائيلي علماني) تتمتّع باستقلال ذاتي واسع تحت «سقف بلدية». ويستطيع القاطنون العرب، ضمن إسرائيل، أن يكونوا مواطنين تابعين للدولة الفلسطينية[26].

تحوّل

لم يكن بيريز، فيما يبدو، مطلعاً على مقدار التقدم الذي تم إحرازه على صعيد المفاوضات السورية ـ الإسرائيلية، وقد حاول، فور تسلمه السلطة، أن يستأنف تلك المباحثات[27]. وفي رحلة إلىٰ واشنطن في شهر كانون الأول/ ديسمبر، ناشد بيريز الرئيس الأسد استئناف المفاوضات. وبعد بضعة أيام، التقى كريستوفر، ثانية، بالأسد في دمشق، واستطاع أن يعلن أن المفاوضين السوريين والإسرائيليين سوف يلتقون في نهاية الشهر في واشنطن. وفي 27 كانون الأول/ ديسمبر التقى أوري سافير، الذي شارك في مفاوضات «اتّفاق أوسلو»، بالسفير السوري وليد المعلم في وادي بلانتيشن خارج واشنطن. وعالجت هذه المباحثات الصعبة، التي شارك فيها الأمريكيون عن قرب، قضايا أمنية، وبدا أنها حقّقت بعض التقدّم.

وفي شهر كانون الثاني/ يناير، أجرى الفلسطينيون انتخاباتهم، وفاز عرفات ومؤيدوه من «فتح» بسهولة في انتخابات نزيهة، جرت تحت مراقبة

---

(26) From Yossi Beilin. «The Past, Present and Future of the Oslo process View from the Labor Party» special Policy forum report to the Washington Institute for Near East Policy, Peace watch,» No. 112 (Dec. 11, 1996, p. 2. The draft of the Beilin-Abu Mazin agreement for the negotiation that took place at Camp David in July 2000.

يمكن الاطلاع على النص الكامل في موقع بروكنغز الذي سبق ذكره.

(27) Savir, The Process, pp. 266-283.

دقيقة. وبعدها بوقت قصير، صوّتت السلطة الفلسطينية على حذف تلك العبارات الواردة في «الميثاق»، التي ترفض حق إسرائيل في الوجود. وبدا كل شيء يسير على ما يرام، ما عدا التهديدات التي كانت لا تزال ترد على لسان المتطرفين. وأمر بيريز، الذي كان يأمل، في أن يبدو صارماً مثل رابين، باغتيال يحيى العياش، وهو متطرّف من حماس، عُرف عنه أنّه كان «صانع القنابل».

في شباط/ فبراير وبداية آذار/ مارس 1996، ضربت «حماس» ثانية، وسبَّبت خسائر فادحة. ففي القدس وتل أبيب، فجر انتحاريون متفجراتهم في حافلات وأماكن عامّة. وعندما صمتت أخيراً أصوات المتفجرات، كان عدد القتلى الإسرائيليين قد وصل إلىٰ ما يزيد على خمسين قتيلاً، بعضهم في قلب تل أبيب في «مركز ديزينغوف». وكان تأثير ذلك على الرأي العام مأساوياً، وكان بيريز عاجزاً عن طمأنة الإسرائيليين العاديين، حتى عندما أمر بهجوم واسع النطاق في لبنان، في محاولة لضرب أعداء إسرائيل. وقتلت قواته العسكرية، عن طريق الخطأ، ما يزيد على مائة مدني لبناني من الأبرياء الذين لجأوا إلىٰ حماية معسكر تابع للأُمم المتَّحدة. وقد رُوِّع كثير من الناخبين من عرب إسرائيل، وعبَّروا عن غضبهم عن طريق رفض التصويت لبيريز عندما جرت الانتخابات في أيار/ مايو.

أدَّت أحداث شباط/ فبراير وآذار/ مارس إلىٰ توقف المحادثات السورية ـ الإسرائيلية، كما بدا السَّلام الإسرائيلي ـ الفلسطيني معرضاً للخطر. ولم يعد بوسع بيريز، مرشح السَّلام، أن يزعم أنه سيحقِّق نصراً سهلاً على منافسه من ليكود، بينيامين نيتانياهو، الذي قدم نفسه على أنه «السيد أمن». وكانت انتخابات 1996 الإسرائيلية، أول انتخابات تُجرى وفقاً لقواعد جديدة تسمح للناخبين الإسرائيليين باختيار رئيس الوزراء المقبل، مباشرة. وعندما أُعلنت الأصوات، تبين أن نيتانياهو قد فاز بنسبة تقل عن نصف في المائة، وأن حزبه قد فاز بالفعل بمقاعد أقل، في مجلس «الكنيست»، من حزب العمل. وأبدى

بعض المراقبين شكوكهم في استمرار عمليَّة السَّلام لفترة من الوقت، ربما قد تكون غير محددة.

هل كان بوسع كلينتون أن يفعل ما هو أكثر؟

تعتبر الفترة الممتدة من 1992 ـ 1996 فترة ملتفة للنظر، من حيث إحراز التقدم ـ فقد تحقق خلالها اتِّفاق أوسلو 1، وأوسلو 2، والسَّلام بين الأردن وإِسرائيل، وتقدم على صعيد المسار السوري ـ ومن حيث الدور المتواضع نسبياً، الذي قامت به الولايات المتّحدة في دفع الأطراف المعنية إِلىٰ توقيع اتِّفاقيات[28]. ولم يكن هذا بسبب عدم اهتمام كلينتون وكريستوفر وروس بهذه المهمة، إذ هم، على العكس من ذلك، قاموا بإجراء مباحثات، وسافروا وحضوا الفرقاء وشجعوهم. وقاموا بالدور الذي اعتقدوا أنَّه الأكثر ملائمة، وهو دور مُسهل الأمور. وكانوا مستعدين لدعم السَّلام بالمساعدات، بل إنهم ألمحوا إِلىٰ احتمال إرسال قوات أَمريكيَّة إِلىٰ الجولان، كجزء من قوةٍ لحفظ السَّلام. وكانت جميع هذه الجهود موضع ترحيب من جانب الأطراف المتفاوضة، ولم يظهر خلال تلك الفترة إِلاَّ القليل من الانتقاد العلني للدور الأَمريكي. وكانت م. ت. ف تأمل دوماً بما هو أكثر، من جانب الولايات المتّحدة، ولكنّها لم تكن تتوقع فعلاً أن تنافس إِسرائيل بالحصول على الدعم الأَمريكي، وهكذا، فقد حاول عرفات بناء علاقة عمل طيبة مع كلينتون، آملاً أن يضطلع الأَمريكيون بدورهم في مفاوضات الوضع النهائي.

لو أن رابين بقي حياً ليرى سير استراتيجيته حتى النهاية، لكان نهج

---

(28) يصف رابينوفيتش في كتابه «حافة السَّلام»، ص 259 الدور الأَمريكي على الوجه التالي: «احتلت عملية السَّلام في الشرق الأَوسط واحداً من أهم المواقع في السياسة الخارجيَّة لإِدارة بيل كلينتون الأولى حيث «تحقق نجاح مهم بالعودة إِلىٰ استثمار ضئيل نسبياً ومخاطر محدودة» (تأكيد مضاف).

كلينتون في أن يدع إسرائيل تخطو نحو المفاوضات، ذا معنى واضح. ولكن الوقت عامل جوهري في الشرق الأَوسط، والولايات المتّحدة لم تفعل إلاَّ القليل لإضفاء إحساسها الخاص بالإلحاح. فعلى المسار السوري بشكل خاص، كانت غير قادرة على إتمام صفقة بدت جاهزة للإنجاز. ومن الصعب أن نقرر لماذا حدث ذلك على وجه الدقة، ولكن المرء لا يشاهد إلاَّ إشارة ضئيلة، إلىٰ جهد أَمريكي لإقناع كل من الأَسد ورابين بأن يضعا، جانباً، حذرهما الطبيعي، وأن يتقدما نحو عقد اتِّفاق. إذ لم يجر شيء يُذكر في ولاية كلينتون الأولى، بالمقارنة مع رحلات كيسينجر المكوكية، أَو كامب ديڤيد، أَو إعداد بيكر لمؤتمر مدريد. لا أحد يستطيع القول إن مثل هذه التاكتيكات لا بد أن ينجح، ولكن المذهل أنّها لم تُجرب، وخاصة في ظل الدور التاريخي الذي قامت به الولايات المتّحدة، والزخَم الذي أوجدته في مباحثات السَّلام عام 1993.

لم يسمح كلينتون لنفسه بمجابهة رابين، في أي وقت من الأوقات، حتى ولو كانت هذه المجابهة غير علنية بالتأكيد. فقبل أوسلو، لم تجر إِدارة كلينتون اتصالات مع م. ت. ف، خشية أن يؤدي ذلك إلىٰ استبعاد الفلسطينيين الأكثر اعتدالاً. أما رابين وبيريز، فقد كانا بالطبع، يريان الأشياء كما هي، وتقدما نحو عقد صفقة مع عرفات. ولم يحذُ كلينتون سريعاً حذوهما إلاَّ بعد توقيع أوسلو. وحتى ذلك الحين ظل كلينتون متمسكاً بسياسة عدم تأييد الولايات المتّحدة لقيام دولة فلسطينية. فإذا ما اتفق الطرفان على مثل هذه النتيجة، فإن الولايات المتّحدة لن تعترض على ذلك بالطبع. وبذا، بدا الأمر وكأن كلينتون لا رأي خاصاً له، أَو كأن الولايات المتّحدة ليست لها مصلحة قومية مستقلة راهنة في عمليَّة السَّلام. ولو أن كلينتون تحدَّث، على نحو إيجابي عن دولة فلسطينية ديمقراطية كنتيجة ممكنة، لعزّز موقف الفلسطينيين المعتدلين، الذين لم يكن

لديهم الكثير كي يظهروه أمام شعب الضفّة الغربيّة وغزّة، ولسهّل الوصول إلى الموافقة الإسرائيلية على النتيجة، التي اعترف كل من رابين وبيريز أنّها حتميّة[29].

لعل من الممكن تفهّم عزوف كلينتون عن اتخاذ أية خطوات، قد تبدو وكأنّها تزعزع موقف رابين، وهذا ما يتفق مع وجهات نظر كل من روس واندیك، وما يلائم الوضع الداخلي لسياسة واشنطن، حيث يتحفز الكونغرس، الذي بات الآن تحت سيطرة الجمهوريين، للانقضاض على كلينتون عند أية جولة لا يكون فيها مؤيداً لإسرائيل على نحو مُرضٍ[30]. وحتى عام 1996، لم يكن هناك سبب ملموس للاعتقاد بأن كلينتون وفريقه قد ضلوا جادة الصواب. إذ ماذا يسعهم فعلُه مع رئيس للوزراء مثل نيتانياهو؟ هل كان بوسع كلينتون وفريقه ابتكار استراتيجية لإبقاء مسيرة السَّلام مستمرة، بوجود رئيس وزراء إسرائيلي متعنّت؟ هل يستمرون في تجنّب ممارسة أي نوع من الضغط؟ أم أنهم سيرون مصلحة استراتيجية في المحافظة على مكتسبات السنوات الماضية، ويطرحون مزيجاً من الحوافز لإقناع القيادة الإسرائيلية الجديدة، بأن المفاوضات القائمة على مبدأ «الأرض مقابل السَّلام» هي في مصلحة إسرائيل الوطنية؟ لا شيء في ولاية كلينتون الأولى يعطي سبباً لتوقع تبدل مهم في الاستراتيجية، ولكن الوضع على الأرض سرعان ما تبدّل بطُرق جوهريَّة.

---

(29) William B. Quandt «The Urge for Democracy», Foreign Affairs vol. 73 (July/ August 1994) pp. 207.

(30) في عام 1994 حقق الجمهوريون نتيجة جيدة في انتخابات الكونغرس وخاصة في مجس النواب. وتسلم نيوت غينفرتش من ولاية جورجيا رئاسة المجلس. كان محافظاً متشدداً ونصيراً قوياً لإسرائيل.

الفصل

12

الجزء الأخير من ولاية كلينتون: خلافات، وتردّد، وخيبة أمل

لا بد أن خبر انتخاب بينيامين نيتانياهو، في أيار/ مايو 1996، رئيساً لوزراء إسرائيل، كان أشبه شيء بالصدمة بالنسبة إلىٰ الرئيس بيل كلينتون ومستشاريه المقرَّبين في السياسة الخارجيَّة. فهم قد أوجدوا علاقات وثيقة مع إسحاق رابين، وبالتالي مع شمعون بيريز، وشجعوا سياستهما في إقامة سلام عربي ـ إسرائيلي، يستند بقوة، إلىٰ افتراض أن إسرائيل سوف تنسحب في النهاية من معظم الأَراضي التي احتلتها عام 1967، عندما تضمن السَّلام والأَمن من جانب جيرانها. أما الآن، ومع عودة حكومة ليكودية إلىٰ السلطة، فقد بات على كلينتون أن يستكشف كيفية التعامل مع حكومة إسرائيلية تشك في العرب، وغير راغبة في التخلي عن الأَراضي تحت أية ظروف، ومتشدِّدة حيال أي إملاء من جانب الولايات المتّحدة.

كان كلينتون، الذي استثمر جانباً كبيراً من وقته في صنع سلام عربي ـ إسرائيلي، متجنباً الكثير من الجدل حول قَصر دوره على تسهيل الأمور، يستطيع، نظرياً، أن يتابع النهج ذاته، على أمل أن يتحوّل نيتانياهو إلىٰ براغماتي. كما كان يستطيع، كخيار آخر، أن يتخلَّى عن المبادرات الدبلوماسيَّة في الشرق الأَوسط لفترة محدودة، مُجبراً الفرقاء على القبول بنتائج مشاركة أَمريكيَّة أقل، لعلهم، في الوقت المناسب، يدعون الولايات المتّحدة إلىٰ العودة مما سيعطي كلينتون مزيداً من النفوذ. أَو قد يقرر كلينتون، أن للولايات

المتّحدة مصلحة كبيرة في إنهاء النِّزاع لأسباب تخصها، ويمكن أن تحاول الضغط على كلا الطرفين ومداهنتهما ـ وخاصة الجانب الأقوى وهو الإسرائيليون ـ لتقديم التنازلات الضرورية من أجل السَّلام. وهذه الاستراتيجية الأخيرة، ستكون مُكلفة بشكل واضح، على صعيد السياسة الداخلية، وعلى كلينتون أن يُفكر في إعادة انتخابه، حتى قبل مجرد التفكير في هذا النهج.

إحياء أوسلو

دخل نيتانياهو حملته الانتخابية بصفة «السيد أمن» مُدعياً أن اتِّفاقيتي أوسلو كانتا خطراً على إسرائيل، وأن ياسر عرفات ما هو إلاَّ إرهابي، وأن إسرائيل لن تقدم المزيد من التنازلات بشأن الأَراضي. ومعنى هذا أن كلينتون، إذا لم يتم تعديل بعض هذه الآراء، سيشهد تلاشي الكثير من التقدّم الذي عمل على إحرازه في السنوات العديدة السابقة. ولهذا، فقد كانت الفقرة الأولى في برنامج العمل، هي إقناع الحكومة الإسرائيلية الجديدة بأن تحافظ على التزاماتها، وأن تتعامل بطريقة بنّاءة مع عرفات، الذي ربما كان، في نظر كلينتون وفريقه، ذا ماضٍ كريه، ولكنه يبقى الزعيم الوحيد، في الجانب الفلسطيني الذي كان قادراً على تنفيذ وعوده. وإذا لم يكن عرفات على رأس السلطة، فثمة تخوف من أن يتسلم زمام الأمور زعماء «حماس»، الأكثر راديكالية. والأخطر مما يمكن أن تتعرّض له «أوسلو»، أن الاتجاه العقائدي في السياستين العربية والإسلامية يمكن أن يتحوّل إلىٰ منحى خطر، إذا أصبح السَّلام الإسرائيلي ـ الفلسطيني موضع شك. والأكثر من ذلك، أن السَّلام بين مصر وإسرائيل، والأردن وإسرائيل، يمكن أن يتبدّد من جراء الجمود الطويل في عمليَّة أوسلو.

في بداية تموز/ يوليو عام 1996، التقى كلينتون، لأول مرة، في المكتب البيضاوي، بالزعيم الإسرائيلي الجديد. وعند هذه المحطة، كان هدفه، الذي بدا متواضعاً الإبقاء على استمرارية عمليَّة التفاوض. وكان كلينتون يقف على

أرضية صلبة. فنيتانياهو قد لا يوافق على أوسلو، ولكنه لا يستطيع حقاً أن ينكرها. ومن المرجح أنه سيحاول البرهنة على أنه مماحك، فيما يتعلَّق بالالتزامات الفلسطينية، بموجب اتِّفاق أوسلو، وسيبربط ما بين أية انسحابات جديدة، وخضوع عرفات الكامل لأحكام الاتِّفاق المتعلقة بالأَمن. والحق، أن نيتانياهو كان يتكلم عن «الأَمن» و«التبادلية» بوصفهما العنصرين المركزيين في «أوسلو»، وأظهر لائحة بالاختراقات الفلسطينية التي لا بدّ أن تُعالج، قبل أن يستأنف الاتصالات مع منظّمة التّحرير الفلسطينية.

تأكد لكلينتون وفريقه، أن نيتانياهو يعطي قيمة كبيرة لعلاقة إِسرائيل بكل من مصر والأردن، مهما كانت درجة معارضته لتأييدهما عرفات. وهذا ما شجع كلاً من الرئيس حسني مبارك والملك حسين، على التعامل مباشرة مع نيتانياهو، ومعاملته باحترام، وهو ما يساعدهما بالتالي على إقناعه بتقليص معارضته لاتِّفاقي أوسلو. وذهب الملك حسين بعيداً، إِلىٰ حد دعوة رئيس الوزراء الإِسرائيلي الجديد إِلىٰ عمّان، الأمر الذي أزعج المعارضة الأردنية التي كانت تعبر لفظياً عن استيائها. وتجرع مبارك المرارة، وهو يخفي عدم تقبله للزعيم الإِسرائيلي الجديد.

وسرعان ما تبين أنه كان من العسير تنفيذ أحد جوانب اتفاقي أوسلو. وكان رابين وبيريز قد وافقا، من قبل، على انسحاب القوات الإِسرائيلية من معظم أرجاء مدينة الخليل، ولكن بيريز أجّل تنفيذ ذلك الاتِّفاق المكتوب، في الأسابيع التي سبقت الانتخابات في شهر أيار/ مايو. وجاء نيتانياهو ليعلن بوضوح، أنه لن ينفذ اتِّفاق الخليل كما جرى التوقيع عليه، وأنَّه لا بد من إعادة التفاوض حوله. واعترض عرفات قائلاً: إن إعادة التفاوض سترسي سابقة خطيرة. واستمر الجمود قرابة شهر.

وأخيراً، وبعد تشجيع شديد من جانب الولايات المتّحدة، اجتمع نيتانياهو وعرفات وجهاً لوجه في بداية شهر تشرين أول/ أكتوبر. وتلا ذلك

بوقت قصير، اجتماع ثان لكلينتون مع نيتانياهو للتباحث، ظاهرياً، حول أفضل الطُرق لاستئناف المفاوضات السورية ـ الإسرائيلية، وكذلك حول إعادة اتفاق أوسلو إلىٰ مساره. وبعد أيام قليلة، بدأت السلطة الفلسطينية مفاوضات حول نهج معدل لانسحاب إسرائيل من الخليل.

في نمط من العلاقات، سرعان ما بات مألوفاً، راح نيتانياهو يناكف م. ت. ف، وهذا ما عرّضه لبعض الانتقادات داخل حزبه، من خلال عمل بدا أنه يرمي إلىٰ اجتذاب مؤيديه المتشددين. فعلى مدى سنوات، كان ثمة مسألة خلافية حسَّاسة، تتعلَّق بما إذا كان على إسرائيل أن تفتح النفق القديم الذي يدور حول «جبل المعبد» (الحرم الشريف). ذلك أن فتحه كان سيؤدي إلىٰ السماح للناس بالذهاب مباشرة من «الحائط الغربي» إلىٰ أحد مداخل «قبة الصخرة»، في المنطقة الإسلامية من القدس. وكان هذا الموضوع، كشأن موضوعات كثيرة أخرى في القدس، ينطوي على حساسيَّات دينيَّة، وكانت الحكومات السابقة مصمِّمة على عدم المخاطرة بإثارة مشاعر المسلمين وتأجيجها، مهما كانت الحقوق المشروعة. بيد أن نيتانياهو عزم على نحو منفرد، بدون تحذير مسبق لقوات الأَمن لديه، فضلاً عن إعلام الفلسطينيين. واندلعت المظاهرات في الأيام التالية، وانضمت الشرطة الفلسطينية لأول مرة إلىٰ المواجهات. وأطلقت القوات الإسرائيلية النار على المتظاهرين، الذين لم يواجهوا تلك القوات بالحجارة فقط، بل واجهوها أيضاً بالأَسلحة النارية الآلية. ووقعت خسائر في كلا الجانبين. واستشاط نيتانياهو غضباً، وادعى أن السلطة الفلسطينية، المسؤولة عن حفظ الأَمن، قد كشفت عن وجهها الحقيقي في الأزمة. ولا حاجة إلىٰ القول إن الفلسطينيين قد أنحوا على نيتانياهو باللائمة، على العمل الاستفزازي الذي قام به بفتحه للنفق.

كان كلينتون قلقاً للغاية لاندلاع العنف، وهذا ما دفعه إلىٰ دعوة كل من عرفات ونيتانياهو والملك حسين إلىٰ واشنطن؛ أما مبارك، فقد كان غير قادر،

أَو غير راغب في المشاركة. ولما كان كلينتون من المؤمنين دوماً بفضيلة المحادثات، فقد دعا المتخاصمين معاً إِلىٰ الغداء في البيت الأبيض، ومعهم الملك حسين، ثم تركهما معاً، كما لو كان كل ما يحتاجان إليه هو بعض الوقت لتصفية نزاعهما. وأثمر عمل كلينتون ـ المُسهل دوماً للأمور، والمتردّد بالانخراط في القضايا الجوهرية. وكانت نتيجة هذه القمَّة الغريبة، قراراً باستئناف المباحثات حول الخليل.

إعادة انتخاب كلينتون

لا أحد يستطيع أن ينكر على كلينتون، مهما كانت مثالبه كاستراتيجي في السياسة الخارجيَّة، أنّه كان مُعلّماً في خوض الحملات الانتخابية. وقد بدا، بالمقارنة مع منافسه، الجمهوري بوب دول، مرشحاً مفعماً بالحيوية، والجاذبية الشخصية، والتفاؤل بالمستقبل. ولعب أداء الاقتصاد الجيد، دوراً كبيراً في مصلحته. ولم تُجدِ دول شيئاً، محاولته أن يبدو أكثر ولاء لإِسرائيل من كلينتون. فقد أيدت أصوات المقترعين اليهود، بغالبية كاسحة، الرئيس كلينتون، الذي طرح نفسه في الحملة، كأفضل صديق عرفته إِسرائيل. وبمثل هذه الأسهم العالية، ضمن كلينتون لنفسه نصراً كبيراً عندما ذهب الناخبون، أخيراً، إِلىٰ صناديق الاقتراع في شهر تشرين الثاني. وكانت هذه أول مرة، منذ عام 1964، يعاد فيها انتخاب رئيس ديمقراطي ـ وهذا إنجاز كبير لكلينتون في حملته الأخيرة. والآن، حيث لم يعد لديه فرصة انتخابات قادمة، ماذا تراه فاعلاً في ولايته الثانية؟

لم يؤد انتصار كلينتون الشخصي في صناديق الاقتراع إِلىٰ انتصار الديمقراطيين في الكونغرس. فقد حافظ الجمهوريون على سيطرتهم في كلا المجلسين، مما جعلهم يمارسون ضغطاً جدياً على الرئيس في الشؤون الداخلية، والخارجيَّة معاً. وكان على رأس لجنة العلاقات الخارجيَّة، في مجلس الشيوخ، الرجل القوي جيمس هيلمز، الذي كان شديد الانتقاد للأُمم

المتَّحدة، والمساعدات الخارجيَّة، والتعددية، ووزارة الخارجيَّة، وهو في مركزه الحالي، يجسّد التأييد المطلق لإسرائيل، وإن لم يكن كذلك في الماضي. وكان يشغل موقع رئاسة «لجنة مجلس النواب للعلاقات الدولية» بين غيلمان، الذي كان بدوره مؤيداً قوياً للدولة العبرية. ومع هذا، فقد كان بوسع رئيس يتمتع بالشعبية، ومعروفاً بصداقته لإسرائيل، أن يجازف بمخاطر قليلة في عدم الاتِّفاق مع نيتانياهو، ومبرهناً، في الوقت نفسه، على حرصه على حاجات إسرائيل الأَمنية، ومغطياً نفسه بعباءة أوسلو وعمليَّة السَّلام.

اتِّفاق الخليل

كان هدف وزير الخارجيَّة وارن كريستوفر الوصول بالمفاوضات حول إعادة الانتشار الإسرائيلي، خارج الخليل، إلىٰ نهاية ناجحة. وبدا كمن يريد أن يصفي جدول الأعمال، قبل أن تبدأ مرحلة جديدة.

بعد شهور من المفاوضات الشاقة، توصلت كل من إسرائيل و«المنظّمة»، أخيراً، إلىٰ اتِّفاق الخليل في 15 كانون الثاني/ يناير 1997[1]. وسرعان ما تم التصديق عليه من قِبل الكنيست الإسرائيلي والمجلس التشريعي الفلسطيني، بغالبية كبيرة في المجلسين. ولما كان ذاك الاتِّفاق، هو الأول من نوعه، بين حكومة إسرائيلية بقيادة ليكود، وبين «المنظّمة»، فقد اعتبر من قبل كثير بمثابة حد فاصل، وسارعت إدارة كلينتون إلىٰ أخذ نصيبها من الفخر بهذا الإنجاز. وزعم المتفائلون أيضاً، أن الاتِّفاق قد برهن على أن نيتانياهو لن يتمسّك بيهودا والسامرة، كما يصر اليمينيون في حزبه.

وكانت إسرائيل، قبل هذا الاتِّفاق، قد سحبت جميع قوَّاتها من المدن والبلدات الكبرى في الضفَّة الغربيَّة، باستثناء الخليل، بموجب أحكام اتِّفاق أوسلو 2. وفي هذه المنطقة، التي باتت تُعرف باسم «المنطقة آ» ـ والتي تشكّل

(1) للاطلاع على نصّ اتِّفاقية الخليل ارجع إلىٰ موقع بروكنغز على الإنترنيت الذي سبق ذكره.

حوالي 3٪ من أَراضي الضفَّة الغربيَّة وغزّة ـ باتت الشرطة الفلسطينية تتحمّل المسؤولية الكاملة عن الأَمن. ولا يقطن أي إِسرائيلي في هذه المنطقة. وكانت الخليل تختلف عن باقي مدن الضفَّة الغربيَّة، لأن حوالي 400 ـ 500 مستوطن إِسرائيلي، معظمهم من المتعصبين المرتبطين بحركة غوش إيمونيم اليمينية، قد انتقلوا إِلىٰ بيوت عند أطراف المدينة، بالقرب من موقع ديني حسَّاس هو المسجد/ الضريح الإبراهيمي. وكانت هذه المجموعة الضئيلة المحاطة بالعرب، تحتاج إِلىٰ حماية عسكرية إِسرائيلية دائمة. وكان الفلسطينيون يرغبون في أن يغادر المستوطنون المدينة كلياً؛ ولكن حزب العمل رفض أن يُخلي المستوطنين، وعمل على إيجاد ترتيب يقضي بالسماح لهؤلاء بالبقاء تحت الحماية العسكرية الإِسرائيلية، خلال الفترة الانتقالية. وكان هذا يعني، أن تنسحب إِسرائيل من 80٪ من المدينة، وأن تُبقي سيطرتها على 20٪ منها. وقد ضمت هذه المنطقة الأخيرة المستوطنين، بالإِضافة إِلىٰ 30 ألف فلسطيني.

أكّد اتِّفاق الخليل، العناصر الأساسية الواردة في اتِّفاق أوسلو 2، بشأن تلك المدينة. ولكن الإجراءات الأَمنية كانت تُشدد، في بعض الحالات، لصالح إِسرائيل كما أصر نيتانياهو. وتضمن الاتِّفاق بعض الترتيبات الخاصة المتعلّقة بالأَمن، في عدة مواقع مقدّسة، كان من أهمها المسجد/ الضريح الإبراهيمي، حيث كان الإِسرائيليون والفلسطينيون يتعبدون جنباً إِلىٰ جنب.

من بين ابتكارات اتِّفاق الخليل: إدراج «ملاحظة في السجل» كتبها المنسِّق الأَمريكي الخاص في الشرق الأَوسط دينيس روس. فقد كان نيتانياهو غير راغب في وضع اسمه في وثيقة تُلزم إِسرائيل بإجراء انسحابات أخرى، بمقتضى أوسلو 2، ولكنه كان مستعداً لأن يدع روس يكتب ملاحظة تفيد بأن إِسرائيل ستظل ملتزمة بأوسلو 2 «على أساس التبادلية». ومسألة التبادلية هذه، أضحت مسألة أساسية في أحاديث نيتانياهو الطنَّانة، وكثيراً ما ردّد أن إِسرائيل لا

تستطيع أن تفي بالتزاماتها بموجب اتّفاقي أوسلو، إذا لم يستجب الفلسطينيون لقضايا مثل توفير الأَمن وتعديل ميثاقهم الوطني. والحق، أن أياً من الجانبين لم يلتزم تماماً بجميع تفاصيل اتّفاقي أوسلو: فإِسرائيل لم تطلق سراح جميع السجناء، كما وعدت، والمنظمة لم تقم رسمياً بمراجعة نهائية للميثاق الوطني. وظل الجدل حول التبادلية، يستخدم نظرياً، لتبرير التشكيك باتّفاقي أوسلو من قبل الجانبين، ولكن إِسرائيل كانت وحدها المستفيدة من ذلك، في هذه المرحلة.

رسم روس مسؤوليات إِسرائيل نوعياً بموجب أوسلو 2 كما يلي[2]:

- إعادة انتشار أوسع للقوات الإِسرائيلية من المنطقتين «ب» و«ج»، تبدأ في الأسبوع الأول من آذار/ مارس 1997.
- يتم البحث في قضايا إطلاق سراح السجناء، وفقاً لأحكام أوسلو 2.
- تُستأنف المفاوضات حول مختلف المسائل المعلَّقة، بما في ذلك ممر آمن من غزّة إِلىٰ الضفَّة الغربيَّة، والمطار، وميناء غزّة. وسلة من المسائل الاقتصادية والأمنية.
- تُستأنف مفاوضات الوضع النهائي، التي بدأت من الناحية الفنية في آذار/ مارس 1996، والتي، سرعان ما عُلِّقت، في «غضون شهرين»، أي في وقت ما من شهر آذار/ مارس 1997.

من الملاحظ، أن هذا البيان عن المسؤوليات الإِسرائيلية، لم يتضمن أي شيء عن انسحابات إِسرائيلية تالية من الخليل. كما لم يحدد حجم الأَراضي في باقي الضفَّة الغربيَّة التي ستنسحب منها إِسرائيل. وكان اتّفاق أوسلو 2، على النقيض من ذلك، قد حدَّد ثلاث مراحل للانسحاب في فترات من ستة أشهر، مع تحديد تاريخ إنجازها. ولم تُرسم بوضوح أحجام الأَراضي هنا أيضاً، ولكن

(2) للاطلاع على نصّ رسالة روس ارجع إِلىٰ موقع بروكنغز على الإنترنيت الذي سبق ذكره.

تفاهماً عاماً حول هذه المسألة، كان قد تمّ بين المفاوضين الإسرائيليين والفلسطينيين. ولكن هذا التفاهم لم يصمد.

وفي إطار اتّفاق الخليل، كتب وزير الخارجيَّة كريستوفر إلىٰ كلا الزعيمين موضحاً نقاطاً إضافية. وقد أُذن بنشر نص رسالته إلىٰ نيتانياهو[3]، والتي تضمنت أربع نقاط تفاهم أَمريكيَّة من أجل إرضائه. الأولى، يوافق فيها كريستوفر على فكرة «التبادلية» التي استخدمها نيتانياهو، وتبين أنه أبلغ عرفات أن الفلسطينيين، ينبغي أن يكونوا جادين في بذل كل جهد ممكن، لترسيخ النظام والأَمن. وبدون ذلك، فإن تنفيذ الاتّفاق المرحلي يصبح موضع شك. وفي النقطة الثانية، يؤكد كريستوفر أن «جميع المراحل الثلاث، لإعادة انتشار أوسع، ينبغي أن تتم في غضون اثني عشر شهراً من تاريخ تنفيذ المرحلة الأولى، من إعادة الانتشار الأوسع، على ألا يتأخر ذلك عن منتصف 1998». وهذا يعني بعبارة أخرى، أن الولايات المتّحدة كانت تتوقع من نيتانياهو أن يسير قُدُماً في تنفيذ خطة الانسحاب الثلاثي المراحل، ولكن ذلك ورد على أنه «اعتقاد» كريستوفر، وليس كالتزام مستوف للشروط من جانب نيتانياهو.

والأهم من ذلك، أن كريستوفر قال لنيتانياهو صراحة «لقد أخطرت الرئيس عرفات بوجهات النظر الأَمريكيَّة حول عمليَّة إعادة نشر إسرائيل لقواتها، وتعيين مواقع عسكرية محدّدة، ونقل سلطات ومسؤوليات إضافية إلىٰ السلطة الفلسطينية». أي أن إسرائيل، بعبارة أخرى، هي التي ستحدد بنفسها، حجم الانسحابات القادمة وموقعها. ولن تكون هذه المسائل موضع مفاوضات مع الفلسطينيين. وقام كريستوفر فيما بعد بتأكيد هذا التفسير.

واستخدم كريستوفر، أخيراً، عبارة تشنّف آذان الإسرائيليين في نهاية رسالته وهي: «إسرائيل مخولة بالحصول على أراضٍ آمنة وقابلة للدفاع عنها،

(3) للاطلاع على نصّ رسالة كريستوفر ارجع إلىٰ موقع بروكنغز على الإنترنيت الذي سبق ذكره.

تخضع لمفاوضات مباشرة، ويتم الاتِّفاق عليها مع جيرانها». في حين أن نص قرار الأُمم المتَّحدة 242 يتحدَّث عن حدود «آمنة ومُعترف بها». وكان الصقور الإِسرائيليون يفضِّلون الحديث عن حدود «آمنة وقابلة للدفاع عنها»، وقد أصبحت الولايات المتّحدة الآن تستخدم التعبير نفسه.

وفيما امتدح كثيرون نيتانياهو على اختراقه لأيديولوجيا ليكود الصلبة، بالموافقة على الانسحاب من معظم الخليل، بدا أن الانسحابات الأخرى لن تكون واسعة النطاق، كما كان يأمل الفلسطينيون، كما لن تكون كاملة. وقد نشر في الصحف الإِسرائيلية، باستفاضة، أن نيتانياهو لا ينوي الانسحاب إِلاَّ من 40 ـ 50٪ من مجموع أَراضي الضفَّة الغربيَّة، وأن إعادة الانتشار هذه، لن تعني على أية حال، أن الفلسطينيين سيكون لهم سيطرة كاملة على الأَراضي التي سيتم إخلاؤها. وخلال ذلك، بدا نيتانياهو يفكِّر بأن تتحول بعض الانسحابات من المنطقة «ج» إِلىٰ المنطقة «ب» لأغراض أمنية. وهذا يعني، أن الإِسرائيليين والفلسطينيين معاً، سيتولون مسؤوليات الأَمن في هذه المناطق. وينبغي ألا يزيد مجموع مساحة المنطقة الخاضعة لسيطرة الفلسطينيين الكاملة، على أطراف المساحات الداخلة ضمن المنطقة «آ». وهذا يعني، أن السكان الفلسطينيين سيظلون ضمن مناطق معزولة محاطة بقوات الأَمن الإِسرائيلية، أي جزر فلسطينية وسط بحر إِسرائيلي. وهذا يختلف عن صورة بحر فلسطيني تقع ضمنه جزر إِسرائيلية (المستوطنات الإِسرائيلية تحت حماية عسكرية إِسرائيلية)، وهذا ما بدا أن حزب العمل يقبل به، كمخرج محتمل في الضفَّة الغربيَّة، عندما تُستكمل مراحل الانسحاب الثلاث. ولما بدأت هذه الصورة تعتبر احتمالاً حقيقياً، أخذت كلمة «بانتوستانات» تُسمع على نحو متزايد، في إشارة إِلىٰ سياسة التوطين الفاشلة في جنوب أفريقيا، التي يحكمها البيض.

وجوه جديدة

يبدأ الرؤساء ولايتهم الثانية، غالباً، بإعادة تشكيل حكومتهم. فبعض

الأعضاء البارزين يحترقون، وبعضهم يكون أداؤه سيئاً، وبعضهم الآخر يفقد ثقة الرئيس. ولا يحتاج الرؤساء إلىٰ تفسير أسباب التغيير، ذلك لأنهم يتمتعون بصلاحية كاملة في إحاطة أنفسهم بمستشارين من اختيارهم، ولكنهم يخضعون فقط، إلىٰ موافقة على تثبيتهم من قبل مجلس الشيوخ، بالنسبة لأعضاء الحكومة ومديري الإدارات رفيعي المستوى (عدا مستشار الأَمن القومي أَو مساعديه). ولم يكن من دواعي الدهشة استبدال وارن كريستوفر، الرجل المحترم والذي يفتقر إلىٰ المهارة الحرفية، بالمنافسة القوية والسفيرة في الأُمم المتَّحدة، مادلين أولبرايت. وترك طوني ليك منصب مستشار الأَمن القومي ليخلفه نائبه، وصديق كلينتون القديم، صامويل بيرغر (ساندي). وعين الجمهوري المعتدل وليام كوهين في منصب وزير الدفاع. وبقي معظم طاقم الشرق الأَوسط في أماكنهم، على الرغم من أن مارتن انديك عاد من إسرائيل نهائياً، ليستلم منصب مساعد وزير الخارجيَّة لشؤون الشرق الأدنى. وبقي كل من دينيس روس وآرون ميللر في منصبيهما لمتابعة رعاية المفاوضات. ولعل من بين الوافدين المهمين الجُدد إلىٰ وزارة الخارجيَّة: توماس بيكرينغ، الذي عمل سفيراً في الأردن وفي إسرائيل، كما عمل في الأُمم المتَّحدة في فترة حرب الخليج. فهو دبلوماسي رفيع وموهوب، ويمكن أن يتوقع منه القيام بدور ما، في الشؤون العربية ـ الإسرائيلية.

كان اختيار أولبرايت لمنصب وزير الخارجيَّة أمراً مثيراً للاهتمام. فهي أول امرأة تتولَّى هذا المنصب، وأكاديمية محترمة، وتتمتع بتأييد واسع من جانب كلا الحزبين، منذ البداية. وكانت خبيرة بالشؤون الأوروبية. وهي مواطنة تشيكية تتقن عدة لغات، ومسالمة مع الثقافات الأخرى، وناجحة في إلقاء المحاضرات، وهو ميدان، كان سلفها فيه، مخيباً للآمال. وكانت تبدو راغبة في جعل السياسة الخارجيَّة مثيرة للاهتمام، بالنسبة للجيل الجديد من الطلاّب في سنّ الدراسة، في فترة ما بعد الحرب الباردة. ومن دواعي

المفاجأة، أن تحظى وزارة الخارجيَّة والسياسة الخارجيَّة بمدافع جريء عنهما. بل إنّها كانت تحظى بشيء من إعجاب السيناتور جيسي هيلمز في الكونغرس. ولا غرو، فهي قد أمضت عدة سنوات، في عهد إدارة كارتر، وهي تتعامل مع الكونغرس، لذا كان من المتوقع أن تتلاءم مع مزاج الكونغرس. ولما كان وزراء الخارجيَّة الذين جاؤوا إلىٰ مناصبهم بخبرة أوسع في الشؤون الداخلية، قلائل، فقد خشي بعضهم، أن تنظر إلىٰ السياسة الخارجيَّة بعدسات السياسة الداخلية، ولكن لم يشك أحد أنها ستحظى بحضور قوي.

أما وقد أصبحت أولبرايت الآن تحت الأضواء أكثر من أي وقت مضى، فقد باتت تُسأل عن ماضيها. فهي قد نشأت كاثوليكية وعضواً في الكنيسة الأسقفية، ولكنها جوبهت بالدليل على أن جميع أجدادها كانوا يهوداً، وأن ثلاثة منهم ماتوا في «المحرقة»(*). ومن دواعي الغرابة، أنَّها ادعت أنَّها لا تعرف هذه التفاصيل عن تاريخ أسرتها. وتساءل بعض الإسرائيليين ما إذا كانت محرجة بسبب أصلها، كما تساءل بعض العرب عما إذا كان هذا سيعني انحيازاً لإسرائيل. ولكن تبين في النهاية، أن تاريخ أسرتها كان له تأثير أقل في آرائها المتعلقة بالشرق الأَوسط، بالمقارنة مع إحساسها القوي بالشؤون الداخلية، وولائها لكلينتون، وأملها الظاهر في أن تبقى وزيرة للخارجيَّة في ظل إدارة غور القادمة. وكان كل هذا، كافياً كي يضمن أنها لن تستسيغ القتال مع نيتانياهو. وكان السؤال، حول ما إذا كانت ستختار الانخراط أساساً في عمليَّة السَّلام، سؤالاً مفتوحاً. فكريستوفر قد تعرّض للسخرية من جراء رحلاته الكثيرة إلىٰ الشرق الأَوسط، دون أن يحقِّق إلاَّ القليل من النتائج. وقد بدت أولبرايت متلهفة إلىٰ، التركيز على مسائل أخرى، تاركة عمليَّة السَّلام حتى «تنضج» في نظرها.

(*) الهولوكوست ـ المترجم.

الجولة الثانية

كان من الصعب على الدوام، التركيز على ما يجعل ولاية الرئيس الثانية مختلفة عن ولايته الأولى. فثمة نقطة واضحة، وهي أنَّه لن يعول، بعد الآن، على جمهور الناخبين بالطريقة ذاتها. فهو إن لم يتعرّض للاتهام بالتقصير أَو الإدانة «بجرائم فظيعة أَو اقترافات جزائية» فإنَّه من المتوقع أن يتابع عمله طوال السنوات الأربع من ولايته، حتى لو خسر التأييد الشعبي وتأييد الكونغرس. وهذا قد يعني، نظرياً، أنه سيكون حراً في متابعة سياسات غير شعبية. فإذا شعر، على سبيل المثال، أن الضرائب يجب أن تُرفع من أجل التوسع في برامج اجتماعية، فإن هواجس إعادة الانتخابات لن تحول بينه وبين تنفيذ مثل هذا المشروع. سيظل الكونغرس يعارض، كما أن أعضاء حزبه قد يلتمسون منه الامتناع عن ذلك، ولكن الرئيس يستطيع، نظرياً، أن يفعل ما يشاء. وعلى صعيد السياسة الخارجيَّة سيكون الوقت مناسباً له، الآن، لمعالجة قضايا لا تحظى بالشعبية. وفي الشرق الأَوسط، يستطيع كلينتون أن ينظر في إعادة بناء العلاقات مع إيران، وأن يصعد الانتقاد لحكومة نيتانياهو لنسفها عمليَّة أوسلو.

بيد أن الرؤساء، في ولايتهم الثانية، ليسوا أحراراً حقاً إلىٰ هذا الحد. فإذا كانوا يفكرون في موقعهم من التاريخ ـ ومن الصعب أن نتصوّر أن الرؤساء لا يبالون بحكم الأجيال القادمة على سجلهم ـ فسيظلّون في حاجة إلىٰ أن يحكموا بشكل جيد، مما يعني تعاونهم مع الكونغرس. ويصبح هذا صعباً على وجه الخصوص، إذا كان الكونغرس تحت سيطرة الحزب المعارض. ثم هناك ما يسمى بظاهرة «البطة العرجاء». ففي مرحلة ما، من مراحل الولاية الثانية، يتعرّض الثوب السياسي للرئيس، للاهتراء، نظراً لأن الجمهور والمؤسَّسة السياسية، يبدآن بالتركيز على الحملة الرئاسية القادمة. وهذا يعني، على صعيد السياسة الخارجيَّة، أن الزعماء الأجانب سوف يفضلون الانتظار لمعرفة من سيكون الرئيس القادم، بدلاً من اتخاذ قرارات صعبة تحت ضغط رئيس راحل.

وفي حالة الشرق الأَوسط، كانت أية محاولة من جانب كلينتون، عند النهاية الوشيكة لولايته، لممارسة ضغط قوي على إِسرائيل، لن تكون مجدية على الأرجح. فبالمعنى العملي، فإن حقائق الولاية الثانية تقول، إن الرئيس قد يبدو في السنتين الأوليين منها في ذروة قوته. أما في ربيع سنته الأخيرة، حيث يكون الفصل الأولي من انتخابات الرئاسة قد بدأ، فإن مثل هذا النفوذ قد يبدأ بالاضمحلال.

التقى كلينتون بعد عدة أسابيع من بداية ولايته، في كانون الثاني/ يناير 1997، مع نيتانياهو، ثانية، لمناقشة الخطوات التالية في عمليَّة أوسلو. أصبحت الخليل الآن وراء ظهريهما، وكان نيتانياهو قد تعرّض لانتقادات من قِبل بعض أعضاء حزبه، لموافقته على مبدأ التخلي عن الأرض. وأراد كلينتون أقناع الإِسرائيليين بالاستمرار في الانسحابات المرحلية المبيّنة التالية. وهنا كانت المشكلة، أن نيتانياهو لم يكن ملتزماً بالمبدأ، أَو الجدول الزمني، أَو حجم الانسحاب الذي كان كلينتون قد توصّل إليه مع الحكومة السابقة. وكان إصراره على التبادلية والأَمن يعني، أن أي خرق فلسطيني في تنفيذ أوسلو، سيكون مُسوِّغاً لعدم تنفيذ انسحابات أخرى.

ومرة أخرى، كان نيتانياهو عندما يتعرض لضغط من واشنطن، يجيب باسترضاء جناحه اليميني. وفي هذه، المرة كانت المسألة الخطيرة هي بناء 6500 وحدة سكنية في أرض متنازع على ملكيتها تقع شرق القدس، أطلقت الحكومة الإِسرائيلية عليها اسم «هارحوما»، ورفضت فكرة إنها لا تملك الحق في اتخاذ قرارات أحادية الجانب هناك. أما العرب، فكانوا يطلقون على المنطقة اسم «جبل أبو غنيم»، ويدعون أن معظمها يعود ملكيته للعرب.

في هذا الجو المتوتر الناجم عن الجمود الطويل في عمليَّة السَّلام، أطلق إعلان إِسرائيل عن عمليَّة الإسكان الجديدة شرقي القدس، رد فعل شديد في أوساط الفلسطينيين، وعلى الصعيدين العربي والدولي. واجتمع مجلس الأَمن

في بداية شهر آذار/ مارس، للنظر في اتخاذ قرار ينتقد إسرائيل. واستخدمت الولايات المتّحدة حق الفيتو، رغم أنّها كانت توافق على أن قرار نيتانياهو كان استفزازياً.

ظل التوتر شديداً ما بين الفلسطينيين والإسرائيليين، واستمر عدة شهور خلال عام 1997، ولم يتحقّق أي تقدم في المفاوضات. وتقدمت الحكومة الإسرائيلية باقتراح لتنفيذ مرحلة أخرى من الانسحاب، ولكن الفلسطينيين رفضوه معتبرينه غير كاف. وأخيراً، في منتصف شهر آب/ أغسطس 1997، خرجت الوزيرة أولبرايت عن صمتها بالنسبة للشرق الأوسط، وأعلنت أن بلادها ستنخرط بصورة أعمق في دفع الفريقين نحو تحقيق اتّفاق. وفي محاولة للاهتمام بمخاوف الفلسطينيين، تحدَّثت عن تسريع المباحثات حول الخطوات المرحلية، وتحدّثت، في معرض الرد على نيتانياهو، عن تحرّك سريع تجاه قضايا التسوية النهائية. ولم تفصح عن آراء أمريكيَّة إزاء القضايا الجوهرية، ولكنَّها بدت وكأنها تعبّر عن دور وساطة فعّالة لواشنطن[4]. وبالإضافة إلىٰ ذلك، نظمت الولايات المتّحدة مجموعة ثلاثية الأطراف ـ إسرائيلية، وفلسطينية، وأمريكيَّة ـ لتنسيق جهود الحفاظ على الأمن. وكان يمثّل أمريكا مسؤول من وكالة المخابرات المركزية، سرعان ما برهن عن مقدرة مهنية جيدة في التعامل مع الفريقين. وجاءت رحلة أولبرايت الأولى إلىٰ المنطقة، بصفتها وزيرة للخارجيَّة في الشهر التالي، في 10 أيلول/ سبتمبر 1997.

بعد ذلك بوقت قصير، قامت إسرائيل بمحاولة اغتيال فاشلة لأحد نشطاء حماس في الأردن، مما دفع الملك حسين إلىٰ رد فعل عنيف. فقد أصرّ على أن ينفذ نيتانياهو عدة إجراءات، من بينها إطلاق سراح رئيس حركة حماس العجوز والأسير الشيخ أحمد ياسين. وسرعان ما عاد الشيخ ياسين إلىٰ غزّة،

(4) انظر ستيفين ايرلانغر «جمود الشرق الأوسط»، نيويورك تايمز، 7 آب/ أغسطس 1997، ص A.

الذي عزّزت عودته الروح المعنوية في أوساط الفلسطينيين المعارضين لأوسلو.

وفيما بدا أن منتقدي المفاوضات يزدادون قوة في كلا الجانبين: إسرائيل وفلسطين، التقت أولبرايت ثانية، في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، بنيتانياهو وعرفات، في أوروبا هذه المرة. وأخذت تسوق فكرة انسحاب إسرائيلي واحد آخر، بدلاً من ثلاثة، قبل الوصول إلىٰ الاتّفاق النهائي، ولمحت إلىٰ أن الولايات المتّحدة قد تطرح خطة خاصة بها. وكان غضبها من رئيس الوزراء الإسرائيلي واضحاً[5].

1998

بدأت السنة التي كان ينبغي لكلينتون أن يتألّق فيها نفوذه، بداية سيئة بالنسبة له. فخلال عمله حاكماً لولاية أركنساس، كانت تردد، أحياناً، إشاعات عن علاقات نسائية حميمة له. وخلال حملته الرئاسية الأولى، أوشكت هذه الإشاعات أن تُفقده معركة الترشيح، ولكنَّه استطاع، من خلال وقوف زوجته إلىٰ جانبه، أن يواجه الإعلام، وأن يتجاوز العاصفة الصغيرة. ولكنَّه في بداية عام 1998، بدأت حملة أخرى خطيرة تطرق بابه. فقد ذكرت الأنباء أن الرئيس كان متورطاً جنسياً مع متمرنة شابة تعمل في البيت الأبيض منذ 1996، تدعى مونيكا ليوينسكي. وانكشفت هذه القضية، من خلال دعوى قضائية ضد الرئيس، بالتحرش الجنسي، أقامتها ضده امرأة أخرى تدعى باولا جونز. وقد طُلب من الرئيس، أثناء سير إجراءات المحاكمة، أن يؤدي الشهادة، تحت القسم. كما سُئل أثناء ذلك، صراحةً، ما إذا كان قد أقام علاقات جنسية مع مونيكا ليوينسكي. فأنكر ذلك، وكرَّر نفيه بشدة، علانيةً. وقامت الآنسة ليوينسكي بأداء شهادة كاذبة، تنكر فيها الاتهام، وسرعان ما قُدمت لها المساعدة في إيجاد عمل من جانب صديق مقرّب من الرئيس.

---

(5) انظر ستيفين ايرلانغر «أولبرايت تعبر عن انزعاجها بعد محادثاتها مع نيتانياهو» نيويورك تايمز، 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1997، ص 1.

بقيت الشكوك حائمة حول كذب كلينتون، بعد أن أفادت إشاعة أنَّه حاول حثّ الآنسة ليوينسكي على الكذب تحت القسم (وهذا ما فعلته)، وإزالة الدليل الذي يعطي مصداقية للقضيَّة. وكان هذا، في نظر كثير من الناس، ضرباً من اللف والدوران، كما أثار المسألة الأكثر أهمية وإلحاحاً، والمتعلقة بشخصية كلينتون، والحكم عليه. وقد بدا أحد المدعين العامين، الحاقدين على كلينتون، مصمماً على البرهنة، بأنَّه مذنب ارتكب جرائم خطيرة. وفي البداية، ظنّ بعضهم أنَّه قد يوجه اتهام (من جانب الكونغرس) ضد الرئيس، ولكن الغمامة ظلت معلقة فوق الرئاسة طوال معظم الفصل الأول من 1998.

بالرغم من الإرباكات التي أثارتها «قضيَّة مونيكا» والتي باتت معروفة، فقد ثابر كلينتون وفريقه على محاولة إيجاد جسر ما بين عرفات ونيتانياهو. وفي لقاء مع نيتانياهو في المكتب البيضاوي في شهر كانون الثاني/ يناير، أوضح كلينتون أفكاره التي تندرج في خطة أَمريكيَّة. كما بذلت جهود محسوسة لتحسين الأداء الفلسطيني في المجال الأَمني، وتقديم اقتراح أَمريكي يتعلَّق بانسحاب إسرائيلي. وفي شهر آذار/ مارس، أُعلنت تفاصيل الخطّة: يتوقع أن تنسحب إسرائيل من 13,1 من الضفَّة الغربيَّة وغزّة، بما في ذلك أراضٍ تقع في المنطقتين «ج» و«ب».

واجتمعت أولبرايت في لندن بالزعيمين الفلسطيني والإسرائيلي في شهر أيار/ مايو، كي تحصل على جوابهما بالنسبة للخطة الأَمريكيَّة. قبل عرفات، الذي كان خالي الوفاض في تلك المرحلة، بالخطة بكاملها. ولكن نيتانياهو لم يقبل بها. عندئذ، وضعت أولبرايت موعداً نهائياً، وقالت إن نيتانياهو، إذا لم يقبل، فإن الولايات المتّحدة سوف «تعيد النظر في أسلوبها من عمليَّة السَّلام»[6]. وبدا هذا بمثابة إنذار، وإن لم يكن أحد يعرف ماذا سيحدث إذا

(6) «مقابلات مع مادلين أولبرايت» David Gardner and Andrew Gowers, صحيفة فاينانشيال تايمز (لندن) 7 أيار/ مايو، 1998، ص 18.

بقي نيتانياهو على إصراره. وظن بعضهم أن الولايات المتّحدة، كحد أدنى، سوف تتجه عندئذ إلىٰ العلانية، وتحاول حشد الضغط على نيتانياهو للقبول بالخطة، بل وقد تتجاوزه متجهة إلىٰ الشعب الإسرائيلي كي توضح بأن ما يُطلب من إسرائيل ليس بالتنازلات غير المعقولة.

ولكن الموعد النهائي جاء وانصرم بدون أية نتائج. ويبدو أن كلينتون، بإلحاح من بيرغر ونائب الرئيس آل غور، قد عزم على اتخاذ دبلوماسيَّة هادئة بدلاً من المواجهة[7]. وكانت النتيجة، أن مر معظم فصل الصيف دون اتخاذ أية خطوة إلىٰ الأمام، على جبهة السَّلام.

لم يكن كذلك بالنسبة لوضع الرئيس الشخصي والسياسي. فمع اتضاح الدليل على أن إنكاره في قضيته مع الآنسة ليوينسكي كان كاذباً، في 17 آب/أغسطس 1998، تعرّض الرئيس لمزيد من الاستجواب المفصل من قِبل المدعي العام (الخاص) ثم توجه إلىٰ الجمهور ببيان مقتضب يعترف فيه بأنَّه ضلّل الشعب الأَمريكي، وأنّه كان فعلاً على علاقة «غير لائقة» مع الآنسة ليوينسكي. وأنحى باللائمة بشدة على المدعي العام (الخاص)، وقال إن حياته الشخصية هي خارج إطار اهتمام الجمهور، ونفى أنَّه كذب من قبل تحت القسم، عندما قال إنَّه لم يكن على علاقة جنسية مع ليوينسكي. وفي غضون أسابيع، بعث المدعي العام (الخاص) إلىٰ مجلس النواب تقريراً مفصّلاً يفيد أن الرئيس قد اقترف فعلاً الحنث باليمين وإعاقة القضاء. وفي بداية شهر تشرين الأول/أكتوبر، أوصت «اللجنة القضائية في المجلس، بالسير في إجراءات توجيه الاتهام (إلىٰ الرئيس). وعلى مدى الشهرين التاليين، لاحظ الشعب الأَمريكي المشهد السوريالي نوعاً ما، لانتخابات الكونغرس التي تدل على تأييد واسع

(7) Barton Gellman, «U. S. Tones Down Stance of Israel», Washington Post, May 19, 1998, p. A 1.

لحزب الرئيس، والانخراط الكبير لكلينتون في دبلوماسيَّة الشرق الأَوسط، فيما كانت عمليَّة توجيه الاتهام تسير قُدُماً على نحو يتعذّر اجتنابه.

قمّة وادي ريفر

خلال شهر أيلول/ سبتمبر من عام 1998، بدأ كلينتون وأولبرايت يحرضان كلاً من نيتانياهو وعرفات على كسر جمود المفاوضات، الذي دام قرابة سنتين. وكانت المقايضة الأساسية واضحة كل الوضوح. فعرفات عليه أن يقوم بمجهود كبير في مجال الأَمن، وربما أن يتخلّى ثانية عن أجزاء من الميثاق الوطني التي تعترض على حق إِسرائيل في الوجود؛ وعلى نيتانياهو أن يوافق على مزيد من الانسحابات من المنطقتين «ب» و«ج» تصل إِلىٰ 13٪ أخرى من مساحة الضفَّة الغربيَّة وغزّة.

وفي منتصف تشرين الأول/ أكتوبر، كان كلينتون مستعداً للقيام بالوساطة، لاجئاً إِلىٰ نموذج كارتر في دبلوماسيَّة القمَّة. فقد دُعي عرفات ونيتانياهو لمقابلة الرئيس على مدى بضعة أيام في «وادي ريفر بلانتيشن» الواقعة شرقي ميريلاند. وكان على الرئيس وفريقه القيام بدور مباشر، والتوسط عند اللزوم، من أجل أن يتوصل الطرفان إِلىٰ اتِّفاق. ومن دواعي الدهشة، أن رصيد كلينتون السياسي قد بدا مرتفعاً عند بدء مباحثات واي. فقد أظهرت استطلاعات الرأي أن معظم الأَمريكيين قد وضعوا الملامة على الكونغرس والمدعي العام، في جعلهما من عبث كلينتون قضية كبيرة كما جرى. إِذ أن القضايا القانونية كانت إِما على درجة كبيرة من التعقيد، بحيث تستعصي على الفهم، أَو أن الدليل كان ضعيفاً، بحيث لا يمكن أن يقنع الآخرين. واستفاد كلينتون كذلك من فورة الاقتصاد الأَمريكي. فمع الفوائض المتوقعة في الميزانية، على مدى بضع سنوات قادمة، بدا الكونغرس في وضع يسمح له بالصرف. وكان الاحتياطي الفدرالي قد خفض معدلات الفائدة مع بدء مباحثات واي، وارتفع مؤشر البورصة نتيجة لذلك بمعدل 330 نقطة. لعل خطّ كلينتون الذي اشتهر به

سيستمر. فقد أظهرت نقائصه بطريقة ما، أنَّه بشر معرّض للخطأ، وإذا لم يكن يستحق الاحترام، فهو يستحق العطف والتأييد.

خلافاً لكارتر في كامب ديڤيد، لم يمض كلينتون كل وقته على مائدة المفاوضات. فكثيراً ما كان يقوم بنشاطات لجمع المال لصالح المرشحين الديمقراطيين. وأخيراً، وبعد عدة أيام من الجمود وضعف الرغبة في المضي قُدُماً في المباحثات، ألقى كلينتون بثقله عند نهاية الشوط، مُسهراً الجميع في ليلة 22 ـ 23 تشرين الأول/ أكتوبر[8]. وفي وقت متأخر من 23 تشرين الأول/ أكتوبر، وقّع كل من عرفات ونيتانياهو «اتِّفاق واي» بحضور كلينتون والملك حسين الذي جاء من فراش مرضه، لمد يد المساعدة[9].

لم يكن جوهر اتِّفاق واي بالشيء المبهر كثيراً. فقد ألزم الفلسطينيون أنفسهم باتخاذ خطوات أوسع على صعيد الأَمن، وإلغاء أجزاء من الميثاق الوطني، وتعهدت إسرائيل بالقيام بسلسلة من الانسحابات التدريجية مع تنفيذ الفلسطينيين للجانب الذي يخصهم من الاتِّفاق، كما وعدت إسرائيل بإطلاق سراح عدد من السجناء. وسوف تستغرق هذه العمليَّة كلها بضعة شهور، يشرع الفريقان بعدها بمباحثات الوضع النهائي.

قام الإسرائيليون بانسحاب أولي، وحوّلوا منطقة صغيرة في شمال الضفَّة الغربيَّة إلىٰ سيطرة الفلسطينيين. ولم يكن نيتانياهو راغباً بالقيام بما هو أكثر من

---

(8) للاطلاع على الروايات حول مباحثات واي انظر المراجع التالية: ديڤيد ماكوفسكي: A Wye Diary» هآرتز (بالإنكليزية) 25 تشرين الأول/ أكتوبر، 1998، سيرج شميعان وستيفن ايرلانغر «Mideat Marathon» صحيفة نيويورك تايمز، 25 تشرين الثاني/ نوڤمبر 1998. أمضى كلينتون ما يزيد على 80 ساعة في المباحثات، وهي حالة لا سابق لها من الانغماس الشخصي من جانبه في دبلوماسيَّة السَّلام العربي ـ الإسرائيلي.

(9) حول استخدام كلينتون للغموض في اتِّفاقية واي انظر صحيفة واشنطن بوست، عدد 25 تشرين الأول/ أكتوبر 1998، ص: F. Harris, «Clinton Ambiguity Proves a Streanth in Summit: A 1: Role».

ذلك، مدعياً، على الفلسطينيين الاستجابة أولاً لتعهداتهم بشأن الأَمن. وسرعان ما نشب خلاف حول تحرير السجناء. لم يرق «واي» إلىٰ مرتبة بداية جيدة. وزادت الأوضاع الداخلية في إسرائيل، الأمر، صعوبة، عندما خسر نيتانياهو تأييد الجناح اليميني في حكومته.

صرف النظر عن توجيه الاتهام

كان «واي» زيادة إضافية كافية بالنسبة لكلينتون، على الصعيد الداخلي، كي يضمن استمرار شعبيته المرتفعة. وبالنتيجة، أصبحت انتخابات تشرين الثاني/ نوڤمبر بمثابة عائق أمام خصومه الجمهوريين. ففي مجلس النواب، خسر الجمهوريين فعلاً، خمسة مقاعد، وهو أمر غير مألوف في سنة لا تجري فيها انتخابات. وبحصول الديمقراطيين على الأغلبية في مجلس النواب، وفي مجلس الشيوخ، حيث لم يحدث تغيير، لم يعد بوسع الجمهوريين أن يدّعوا التفويض الشعبي الواضح، بحيث يمكنهم السير قُدُماً في عملية توجيه الاتهام. وبدا من أكبر المفاجآت، بعد الانتخابات، إعلان نيوت غينغريتش أنَّه سيتخلى عن رئاسة مجلس النواب.

كان كلينتون قد وعد عرفات، أثناء مفاوضات واي، أنَّه سيزور غزّة عندما يلغي المجلس الوطني الفلسطيني «الميثاق». وكان لهذه الزيارة أهمية رمزية خاصة. فالرئيس الأكثر ولاء لإسرائيل، سيكون أيضاً أول رئيس يقوم بزيارة رسمية لأرض تابعة للسيطرة الفلسطينية[10]. أما بالنسبة لعرفات، فقد كان هذا التعزيز للعلاقات مع أكبر مساند لإسرائيل يُعتبر إنجازاً كبيراً، ربما يفضي إلىٰ

(10) انظر ملاحظات الرئيس إلىٰ أعضاء «المجلس الوطني الفلسطيني، والمنظمات الفلسطينية الأخرى» غزة مكتب السكرتير الصحفي في البيت الأبيض 14 كانون الأول/ ديسمبر، 1998، أهمها بيان كلينتون إلىٰ الشعب الفلسطيني، والذي جاء فيه «وراءكم تاريخ من ضياع الملكية والتشتت، وأمامكم فرصة لتشكيل مستقبل فلسطيني جديد على أرضكم». وقال أيضاً: «لا بد أن تعترف إسرائيل بحق الفلسطينيين بالتطلع إلىٰ العيش بحرية اليوم وغداً وإلىٰ الأبد».

نتائج في المفاوضات المستقبلية. والحقيقة أن تحسّن العلاقات الأَمريكيَّة ـ الفلسطينية، ربما كان الحصيلة الباقية لمفاوضات واي، والتي ساعد على الوصول إِليها، الافتقار الشديد للودّ ما بين نيتانياهو والرئيس الأَمريكي.

قام كلينتون خلال الفترة ما بين 13 ـ 15 كانون الأول/ أكتوبر 1998، بزيارة لكل من إِسرائيل وغزّة، محاولاً المحافظة على بعض الزَخم خلف اتِّفاق واي الذي بات جامداً. وأثناء وجود كلينتون في الشرق الأَوسط، صوّتت اللجنة التشريعية في مجلس النواب، على 4 فقرات من توجيه الاتهام على أن ينظر فيها المجلس بكامله. وبعد ذلك ببضعة أيام، ضرب كلينتون العراق، بسبب نزاع حول تفتيش الأَسلحة، كان قد نشب منذ بعض الوقت.

وقد تضافرت السياستان الخارجيَّة والداخلية، بشكل حتمي، في الوقت الذي كان يتكهن فيه المعلّقون، بأن تحركات كلينتون الشرق أَوسطية، كانت محاولة لصرف الأنظار عن وضعه الحرج في الداخل.

في 19 كانون الأول/ أكتوبر صوت مجلس النواب على فقرتين للاتهام. وأُرسلت الفقرتان إِلىٰ مجلس الشيوخ حيث انعقد المجلس وكأَنَّه هيئة محكمة للمرة الثانية في تاريخه، للنظر في عزل رئيس من منصبه. وعندما بدأت المحاكمة، كان نيتانياهو يواجه مشكلات داخلية خاصة به، أدت إِلىٰ تعليق اتِّفاق «واي»، والدعوة إِلىٰ إِجراء انتخابات جديدة في منتصف شهر أيار/ مايو عام 1999، بعد وقت ملائم من انقضاء مدة اتِّفاق أوسلو، والتاريخ الذي يهدد فيه عرفات بإِعلان الدولة الفلسطينية من جانب واحد.

بدأ الكونغرس الجديد عمله في كانون الثاني/ يناير، وأمضى مجلس الشيوخ، معظم الأسابيع الستة التالية، في مداولات حول ذنوب كلينتون وما إِذا كانت هذه تصل إِلىٰ مستوى «الجرائم الفظيعة، والتي تطبّق عليها العقوبات الجزائية» كما حدّدها الدستور. ومن أجل إِدانة الرئيس وعزله، كان الأمر ،يحتاج إِلىٰ ثلثي الأصوات، وهذا ما لا يمكن أن تحقيقه بدون أن ينفض عنه

عدد كبير من الديمقراطيين. وهذا لم يحدث. إذ لم يصوت ديمقراطي واحد بالإدانة، عندما أخذت الأصوات في 22 شباط/ فبراير. ونجا كلينتون، الذي تعرض للمهانة من جراء المناقشات المطولة في أوساط الشعب، حول حياته الخاصة، وأخلاقه المشكوك فيها، وظلت شعبيته متماسكة. ومع هذا، فقد كان الوقت يجري، نظراً لأن الحسابات السياسية للسنة الانتخابية قد بدأت تطل برأسها. وبقدر ما كان تواقاً إلىٰ أن استرداد مكانته عن طريق إنجاز ما، على صعيد السياسة الخارجيَّة، وخاصة اتِّفاق سلام في الشرق الأَوسط، فقد بدا هذا صعب التحقيق قبل أن تجري الانتخابات الإسرائيلية، وحتى عند ذاك، سوف يعتمد كل شيء على نتائج تلك الانتخابات. فإذا ما أُعيد انتخاب نيتانياهو، سيكون من الصعب إحراز تقدم في أحسن الأحوال. وسيكون من الأسهل مجيء رئيس وزراء معتدل للتعامل معه، ولكن قدرة كلينتون على دفع المفاوضات قُدماً، لا بد أن تضعف في بداية الألفية الجديدة.

أزمة كوسوفو

فيما كانت الانتخابات الإسرائيلية دائرة، نشبت أَزمة دولية أخرى، استغرقت الكثير من اهتمام الرئيس خلال ربيع 1999. فكوسوفو، وهي مقاطعة فقيرة من يوغوسلافيا، 90٪ من سكانها من الألبان و10٪ من الصرب، انجرفت نحو أَزمة طالت بضعة شهور. وكما في البوسنة، جعلت السياسات المتطرفة للزعيم الصربي سلوبودان ميلوسيفيتش التسوية السياسية، عسيرة المنال. وكان كثيرون يشتبهون في أن الزعيم الصربي كان يخطِّط لحملة تطهير عرقي واسعة النطاق ضد الألبان في كوسوفو. وقد وضع المدافعون عن الموقف الصربي، اللوم على حركة جيش تحرير كوسوفو، المقاتلة. وكانت المفاوضات قد بدأت في فرنسا، وجاءت نتيجتها إنذاراً إلىٰ ميلوسيفيتش، بقبول شروط كوسوفو بحماية الأغلبية الألبانية، والتمهيد لحكم ذاتي واستقلال. ورفض ميلوسيفيتش هذه الشروط، وانتقاماً لذلك، قامت الولايات المتّحدة وكبار حلفائها في حلف

«ناتو»، بقصف أهداف في طول يوغوسلافيا وعرضها، في أواخر شهر آذار/ مارس 1999[11].

ولمّا كان معظم الألبان من المسلمين، فقد أثار النِّزاع في كوسوفو اهتماماً غير عادي في الشرق الأوسط. فقد كان معظم العرب متعاطفاً مع سكان كوسوفو، نظراً لتشابه حالتهم مع حالة الفلسطينيين، خاصة وأن أعداداً كبيرة منهم لجأت إلىٰ الدول المجاورة. وانزعجت بعض الدول العربية، وخاصة العراق، من سابقة تدخل قوات «الناتو» في الشؤون الداخلية لدولة مستقلة. وعلى نحو مشابه، كان الإسرائيليون مشتتين بعض الشيء، ما بين الموقف الرسمي الذي يتعاطف مع سكان كوسوفو، وبين جانب من السكان كان يشعر بالقلق بسبب سابقة تدخّل الأُمم المتَّحدة و«الناتو».

في الشهرين الأولين من الحملة الجوية على الصرب، ارتفعت أصوات كثيرة في أمريكا، تنتقد سياسة كلينتون. وارتفع صوت هنري كيسينجر منتقداً، كعادته، بأن الدافع الإنساني الحسن المقصد، لمساعدة سكان كوسوفو، يفتقر إلىٰ تفكير استراتيجي[12]. ومع تزايد الأدلة على أن مئات ألوف الألبانيين قد هُجِّروا من بيوتهم، فقد بدا أن الأثر الواضح لتدخل الناتو هو جعل الأمور تزداد سوءاً. وبدأت صور الدمار الذي أحدثته القنابل على أهداف صربية، بما في ذلك المدنيين الأبرياء، تثير أسئلة حتمية حول العامل الأخلاقي في قصف أهداف مدنية، لتحقيق أهداف استراتيجية غير واضحة.

وكان الجانب الجيد الوحيد في حملة كلينتون، خلوها تماماً من خسائر في الأرواح، من جانب الحلفاء في «الناتو». فالقصف الجوي كان يجري يومياً

---

(11) من أجل الاطلاع على تحليل مفصل حول كيفية تطور السياسة الأمريكيَّة انظر بارتون غيلمان: «How Atrocity Transformed Policy», Washington Post, April 18, 1999, pp. A 30-31.

(12) Henry A. Kissinger: New World Disorder,» News week, May 13, 1999, p. 41-43.

دون عواقب معاكسة بالنسبة للقوّات الأَمريكيَّة. ومع هذا، فقد ظلّ كثيرون يشكّون في أن يفلح القصف، وحده، في إرغام ميلوسيفيتش على الرضوخ، وسحب قوّاته من مقاطعة، هي في النهاية جزء من بلاده. وكان كلينتون متردداً في استخدام القوات البرية، وآثر بدلاً من ذلك، أن يتوجه إلىٰ الروس لمساعدته في حل دبلوماسي. ومن دواعي الدهشة، أن المسعى قد نجح. ففي بداية حزيران/ يونيو، تم التوصل إلىٰ اتّفاق يدعو إلىٰ انسحاب جميع القوات الصربية من كوسوفو، وعودة اللاجئين الأَلبان إلىٰ بيوتهم، وتشكيل قوة متعددة الجنسيات، بما فيها قوات روسية، لحفظ السَّلام. وظل السؤال: كيف سينتهي الوضع سياسياً في كوسوفو معلقاً، ولكن الأمر بالنسبة لكلينتون، كان ضربة حظ أخرى. وما بدا أنَّه احتمال لكارثة في السياسة الخارجيَّة ـ أَو خطأ فادح على الأقل ـ قد ولى، وأصبح الرئيس قادراً على أن يوجه انتباهه نحو قضايا أخرى.

الانتخابات الإِسرائيلية ونهاية أوسلو

فيما كانت حملة كوسوفو دائرة على قدم وساق، جرى حدثان مهمّان على المسرح الإِسرائيلي ـ الفلسطيني. الأول، انتهاء الموعد الرسمي لفترة السنوات الخمس الانتقالية لاتّفاق أوسلو. وأثار عرفات ضجة كبيرة حول إِعلان الدولة الفلسطينية في 4 أيار/ مايو 1999، وأجاب نيتانياهو على ذلك بتهديدات بضم المناطق التي تديرها إِسرائيل من الضفَّة الغربيَّة، إِذا تم ذلك الإِعلان. وقد بُذل الكثير من الجهد والوقت، لتجنّب صدام بسبب تلك الأَزمة المُضخّمة. وكان التخوّف في الجانب الأَمريكي أن يحول نيتانياهو هذه المجابهة مع عرفات، إِلىٰ مكسب سياسي. ولما كانت الانتخابات الإِسرائيلية مقررة في 17 أيار/ مايو، لم يكن أحدٌ في واشنطن الرسمية، راغباً في إِعطاء نيتانياهو دفعة إِلىٰ الأمام في صناديق الاقتراع. وهكذا أرسل كلينتون إِلىٰ عرفات رسالة، يعده فيها بأن الولايات المتّحدة ستقوم بخطوة كبيرة من أجل الوصول

إلىٰ اتِّفاق الوضع النهائي، في غضون فترة معقولة من الوقت، يتوج باجتماع قمة في واشنطن[13]. وبالإضافة إلىٰ ذلك، كرّر كلينتون تأييده «لأماني الشعب الفلسطيني في تقرير مستقبله على أرضه»، وهي صيغة تبدو قريبة من آمال الفلسطينيين بدولة على أرضهم. وذهب الأوروبيون، بالتنسيق مع الولايات المتّحدة، أبعد من ذلك، في تأييدهم للفلسطينيين. وعلى ضوء هذه الإيماءات من جانب الدول الغربية، سحب عرفات تهديده بإعلان الدولة، إلىٰ ما بعد الانتخابات الإسرائيلية، على الأقل.

وضعت الانتخابات الإسرائيلية بينيامين نيتانياهو في واجهة إيهودا باراك، وهو جنرال حاز أوسمة كثيرة، وربيب إسحاق رابين، اشتهر بالصرامة والبراغماتية والذكاء. وكان على الإسرائيليين ثانية أن يقوموا باقتراعين: أحدهما لاختيار رئيس الوزراء، والثاني للقوائم الحزبية في الكنيست.

وعندما أُحصيت الأصوات في 17 أيار/ مايو 1999، كانت النتائج مذهلة، ولكنها صعبة التفسير. فقد حقَّق باراك نصراً صارخاً على نيتانياهو، حيث حصد 56٪ من مجموع الأصوات. وأصيب نيتانياهو بخذلان شديد، دفعه إلىٰ إعلان استقالته من حزبه، وهجر السياسة أيضاً ـ لفترة من الوقت على الأقل. ولكن التصويت للكنيست كان أشد التباساً بكثير، حيث عبر الناخبون هنا عن اهتمامات ضيقة. ولم يستطع أي من الحزبين الكبيرين أن يتجنّب خسارة في مقاعده. وعلى النقيض من ذلك، كان الرابح الكبير الوحيد، هو حزب شاس الذي يمثِّل اليهود السفارديم المتدينين بالدرجة الأولى. وكان التحدي الأول أمام باراك، قبل أن ينصرف إلىٰ الدبلوماسيَّة، تشكيل حكومة

(13) للاطلاع على نص رسالة كلينتون إلىٰ عرفات المؤرخة في 26 نيسان/ أبريل، 1999 انظر موقع بروكنغز على الإنترنيت الذي سبق ذكره. يشير كلينتون في هذه الرسالة إلىٰ أن «الولايات المتّحدة تعرف كم هي النشاطات الاستيطانية مدمرة، وكذلك مصادرات الأراضي وإزالة البيوت، لعملية السَّلام الفلسطيني الإسرائيلي».

ائتلافية خارج الإطار العلماني ـ الديني المتنافر، وأحزاب اليمين واليسار التي ستشغل مقاعدها في الكنيست الجديد.

كانت واشنطن الرسمية في استجابتها لانتخاب باراك، تكاد لا تخفي سرورها، حتى قبل أن يقدم باراك حكومته إلىٰ الكنيست لنيل الثقة. ذلك أن العلاقات الأَمريكيَّة ـ الإسرائيلية كانت قد تردّت في الأشهر الأخيرة من ولاية نيتانياهو، وكان ثمة توقعات قوية بأن باراك سيكون رئيساً للوزراء، على غرار رابين. ولم يخف كلينتون أبداً إعجابه برابين، وقد بدا متلهفاً لرؤية رئيس وزراء إسرائيل الجديد.

عمل باراك على تشكيل حكومته بطريقة منهجية. فقد التقى تقريباً بجميع الأحزاب، ولعب أوراقه بسرية تامة، مُلمحاً إلىٰ أنَّه قد يضم خصومه من الليكود، ثم أعطى إشارات بأن «شاس» قد يكون هدفه المفضل. واستغرق هذا كله وقتاً طويلاً، وبدا باراك راغباً في استعراض أستاذيته على مسرح السياسة الداخلية، قبل أن يضع يده على خياراته النهائية. ولم يفرغ من تشكيل ائتلافه أخيراً، إلاَّ في بداية شهر تموز، وكان يتكوّن من حزبه، ومن حزب «إسرائيل واحدة»، وحزب ميرتيز اليساري، وشاس، وحزب الوسط وبعض الأحزاب الأخرى. وكان بوسع باراك، في المجموع، أن يعتمد على أكثر من 70 عضواً في الكنيست في جميع الأحوال، بل وعلى أكثر من ذلك، إذا أدخلنا في الحساب الأعضاء العشرة في الأحزاب العربية. وقد جعلت هذه القوة في الكنيست، بالإضافة إلىٰ التأييد القوي في استطلاعات الرأي العام، باراك، في وضع يُحسدُ عليه من أجل استئناف المفاوضات.

خلال شهر حزيران/ يونيو، برزت إشارة مهمة، في تبادل المجاملات بين الرئيس السوري حافظ الأسد وباراك. ففي مقابلة مع الاختصاصي المعروف بالشؤون السورية، باتريك سيل، وصف الأسد باراك بأنَّه «شريف وقوي». ورد باراك بملاحظات إلىٰ «سيل» تفيد بوضوح، أنَّه توّاق إلىٰ عقد اتِّفاق، مع

الأسد، خاصة وأنَّه التزم بسحب القوات الإسرائيلية من لبنان، في غضون سنة واحدة، وهو من أجل تحقيق هذا الهدف يحتاج إلىٰ مساعدة سورية، أَو هذا ما بدا، أنَّه يفكر به[14].

عزّز خطاب باراك الافتتاحي في الكنيست، وجهة النظر القائلة بأن إقامة السَّلام تحتل موقعاً طليعياً في جدول أعماله. فقد تكلم بطريقة مثيرة للمشاعر كجندي خبر الحروب ويسعى إلىٰ السَّلام. وأشار إلىٰ خصومه بطريقة تنم عن الاحترام، بل إنَّه اعترف بأن إسرائيل سبَّبت المعاناة للشعب الفلسطيني.

كانت لقاءات باراك الأولى، مع الرئيس المصري حسني مبارك، أعقبها زيارات للقاء ياسر عرفات والملك عبد الله ملك الأردن. ثم انطلق إلىٰ الولايات المتّحدة لمقابلة كلينتون، الذي وصف نفسه بأنَّه توّاق للمحادثات مع باراك «كشوق ولد صغير إلىٰ لعبته».

التقى كلينتون وباراك في البيت الأبيض في 15 تموز، ثم أمضيا ليلة 16 تموز في كامب ديڤيد مع زوجتيهما. وأقيم حفل عشاء احتفالي في البيت الأبيض في 18 تموز/ يوليو، ثم التقى الرجلان ثانية في اليوم التالي. ومن كل هذه الأوقات التي أمضياها معاً خرجت عدة روايات.

بدا باراك راغباً في الوصول إلىٰ نوع جديد من الارتباط الأَمريكي، أكثر استراتيجية وأقل انخراطاً في التفاصيل[15]. وقد انتقد علناً الولايات المتّحدة على انخراطها الشديد في تفاصيل «اتِّفاق واي»، والعمل تارة كقاض، وتارة كوسيط، ونوه بشكل خاص، إلىٰ دور وكالة المخابرات المركزية في غزّة، واصفاً إياه بأنَّه غير مناسب. والأهم من ذلك، جوهرياً، أن باراك بدا كمن يتساءل عن قيمة المقاربة التفاضلية، التي افترضت أن الثقة يمكن أن تبنى من

(14) يمكن العثور على مقابلة باتريك سيل مع كل من الأَسد وباراك في مجلة «ميد إيست ميرور»، 23 حزيران/ يونيو، 1999.

(15) انظر ألوف بن «استراتيجية أكثر، تاكتيك أقل»، هآرتس (بالإنكليزية) 16 تموز/ يوليو، 1999.

خلال سلسلة من الخطوات الصغيرة. لقد بُني (اتِّفاق) أوسلو على فكرة كهذه، ولم يكن باراك، كما هو معروف، كثير الإعجاب بأوسلو. وهو قد بدا، خلافاً لذلك، أنَّه يريد معرفة ما هو التصميم الشامل للاتِّفاق، وتقرير ما إذا كان الطرف الآخر مستعداً لاتخاذ قرارات صعبة، ثم السعي بعد ذلك إلىٰ اتِّفاق مبادىء أساسيَّة أولاً، وترك التفاصيل إلىٰ وقت لاحق.

أعاد كلينتون، التوّاق إلىٰ تبنِّي أفضليات باراك، التأكيد سريعاً على أن الولايات المتّحدة كانت تسعى إلىٰ دور المُسهّل فحسب، بمساعدة الأطراف على الوصول إلىٰ اتِّفاق، ولكنها لم تسع إلىٰ فرض آرائها. ويبدو أن باراك كان يتوقع، على نحو واضح، من كلينتون، ما هو أكثر من مساعي أمريكا الحميدة. فقد طلب المزيد من الدعم العسكري وتلقى وعوداً بذلك[16]. كما كان مهتماً بشكل خاص، في جعل الأمريكيين يستأنفون حوارهم مع الأسد، للمساعدة في أن يقرر ما إذا كان السَّلام على الجبهة السورية يمكن تحقيقه على وجه السرعة.

بدا انتخاب باراك وكأنَّه أعطى كلينتون الفرصة الأخيرة لتحقيق نجاح على صعيد السياسة الخارجيَّة، قبل أن تنصرم ولايته. ولتحقيق ذلك، لم يكن الوصول إلىٰ اتِّفاق سوري ـ إسرائيلي أمراً بعيد المنال. فكلا الطرفين قد ناقش جميع القضايا على نحو مكثّف في الفترة 1993 ـ 1996[17]. بل إن باراك نفسه، كان قد شارك في تلك المحادثات بوصفه رئيساً للأركان. وكان رابين قد قدّم التنازلات الأساسية عندما عرض إعادة الجولان، مفترضاً أن قضايا الأمن والسَّلام يمكن أن تحل. وكلينتون، الذي أمضى وقتاً أطول مع الأسد، من أي رئيس آخر، قد يكون قادراً تماماً على المساعدة في إقناع الزعيم السوري ثانية،

(16) وليام أ. أورم الابن «سوف تشتري إسرائيل 50 طائرة ف ـ س 1 في أكبر صفقة سلاح عرفتها» نيويورك تايمز، 19 تموز/ يوليو، 1999، ص A6.

(17) Helena Cobban, *The Israeli-Syrian Peace Talks: 1991-96 and Beyond* (Washington D.C.: United States Institute of Peace Press, 1999), especially pp. 175-96.

بالتحرك نحو اتّفاق، بطريقة تختلف نوعاً ما عن سرعته السلحفاتية المعتادة. كما تستطيع الولايات المتّحدة، أن تساعد عن طريق تقديم الحضور الأمني والرصد في الجولان[18].

كان من المتوقع أن تكون الجبهة الإسرائيلية ـ الفلسطينية أكثر تعقيداً. فأولاً كانت القضايا نفسها معقّدة، ولم يكن في مواقف الأطراف المطروحة، ما يوحي بإمكان تحقيق تسويات بسهولة بالنسبة للقدس، والمستوطنات، والمياه، ومشكلة اللاجئين. أما القضايا الأسهل، كالأمن والدولة الفلسطينية، فهي من الممكن أن تكون مادة لاتّفاقيات مبررة مبدئياً، ولكن حتى في هذا المجال، كانت الحساسيَّات بين الجانبين كبيرة. والولايات المتّحدة، التي اتخذت تاريخياً مواقف حول كثير من هذه المسائل الحسَّاسة، باتت اليوم عازفة عن إعادة تأكيد تلك المواقف، قائلة إن على الفريقين أن يتوصلا إلىٰ اتّفاق، من خلال مفاوضات مباشرة. ولكن، ما العمل، إذا تم الوصول إلىٰ الجدران المسدودة الحتمية؟ هل تستطيع الولايات المتّحدة أن تتجاوز دور «المسهل»؟

بدا كلينتون، الذي كان يقترب من سنة ولايته الأخيرة، ممزقاً بين عدة دوافع متنافسة. فقد كانت هناك، الرغبة الطبيعية في ترك تراثٍ تاريخيّ يستطيع أن يفخر به[19]. فعلى الصعيد الداخلي، كانت فرصه في إطلاق بوادر جديدة

---

(18) خلال فترة رئاسة نيتانياهو للوزارة، استمرت الاتصالات مع سورية من خلال العمانيين، ومبعوث الاتّحاد الأوروبي ميغيل موراتينوس، ومن خلال الثري الأمريكي رون لودر. لم يكن نيتانياهو راغباً في انسحاب القوات الإسرائيلية من الجولان كله، ولهذا لم يتم التوصل إلىٰ اتّفاق. ولكنه زعم أن بعض التقدم قد تحقّق في المناقشات حول الأمن، وخاصة أنه سمح لأفراد إسرائيليين أن يبقوا في قمة جبل الشيخ، تحت الإشراف الأمريكي، لرصد الترتيبات الأمنية. مقابلة أجريت مع مستشار أمني كبير لنيتانياهو، 28 حزيران/ يونيو 1999. انظر أيضاً زيئيف شيف «سورية وافقت على قوات أجنبية في جبل الشيخ» هآرتس (بالإنكليزية) 28 أيار/ مايو 1999.

(19) إستناداً إلىٰ مقولة جون ف. هاريس فإن «من يدخل في وساطة يخرج خالي الوفاض» واشنطن بوست 26 تموز/ يوليو، 2000 ص 22A وقال كلينتون ذات مرة إنه «ينظر إلىٰ المساعي من أجل تحقيق السَّلام في الشرق الأوسط كجزء من مرحلة التكفير، عن أخطائه في فضيحة مونيكا س. ليوينسكي».

محدودة بحكم واقع السياسة الانتخابية وسياسة الكونغرس. ولكن في مجال السياسة الخارجيَّة، كان لا يزال يأمل في تحقيق اختراق يسمح له بلعب دور رجل الدولة الذي يتمناه. فقد اكتسب كلينتون على مدى سنوات، ثقة بالنفس في معالجة القضايا الدولية، وأضحى راغباً بشكل خاص، في محاولة إنجاز اختراق على الساحة العربية ـ الإسرائيلية. وقد كان على علاقات طيبة مع معظم زعماء المنطقة، التي كانت قضاياها مألوفة لديه.

كان هناك عاملان مثبطان لإغراء تحقيق السَّلام العربي ـ الإسرائيلي كأولوية ذات مكانة عظمى. أولهما، أن فرصة النجاح لم تكن كبيرة، فالفجوة بين الفريقين، وخاصة بين الإسرائيليين والفلسطينيين، واسعة، ولربما تحتاج إلىٰ ما هو أكثر من التشجيع الأَمريكي، للتوصل اتِّفاق. وثانيهما، أن الالتزام الرئاسي الشديد، يمكن أن يفضي إلىٰ جدل داخلي واسع، وخصوصاً إذا تبيّن أن الولايات المتّحدة تمارس الضغط على إسرائيل لتقديم تنازلات، وهو ما كان يحدث أحياناً، في جولات سابقة لصنع السَّلام. وإذا كان كلينتون قد استنفد فرصة إعادة الانتخاب، فإن آل غور، الذي كان يأمل أن يخلف كلينتون، لن يرحب بأية تحرّكات يمكن أن تضعف من تأييده في أوساط الكثيرين من أصدقاء إسرائيل، في الولايات المتّحدة. كما أن زوجة كلينتون، هيلاري، التي كانت مرشحة لانتخابات مجلس الشيوخ في نيويورك، لا ترغب في أن يعالج زوجها، بصورة علنية، قضايا خلافية مثل القدس، أَو اللاجئين، أَو المستوطنات أَو الحدود[20].

كان قرار كلينتون الظاهر تجاه هذه الضغوط المتشابكة، هو أن يقوم

(20) عبرت السيدة كلينتون عام 1998 عن تأييدها لدولة فلسطينية، ولكنها عندما أصبحت مرشحة لعضوية مجلس الشيوخ راحت تتكلم خلافاً لقناعتها وقالت إن القدس هي العاصمة الأبدية والموحدة لإسرائيل، وأن الولايات المتّحدة ينبغي أن تنقل سفارتها إلىٰ هناك، وهي مواقف تتفق مع آراء المرشحين في نيويورك، وإن كانت تخالف آراء زوجها.

مبدئياً، بما هو أقل من الانغماس في دبلوماسيَّة علنية ساخنة لجعل الإسرائيليين والفلسطينيين والسوريين يتحرَّكون نحو تحقيق اتِّفاقيات. ولسوف ينهمك هو ومساعدوه، في كثير من عمليات الحضّ والمداهنة، ولكن باراك كلاعب جديد في العملية، لا بدّ أن يُعطى وقتاً لوضع جدول أعماله. ولم يكن من دواعي الدهشة، أن تكون نتائج هذه المقاربة المتواضعة، متواضعة بدورها ـ على الأقل في السنة الأولى من ولاية باراك.

صُرف وقت كبير في محاولة إعادة «اتِّفاق واي» إلىٰ مساره. وكان نيتانياهو قد علّقه عملياً على أساس أن الفلسطينيين لم يتقيَّدوا بالتزاماتهم. فعرفات، الذي كانت قاعدة تأييده السياسي تتراجع، شعر بحاجة إلىٰ رؤية القوات الإسرائيلية تنسحب تدريجياً من المناطق الفلسطينية كما جاء في اتِّفاق «واي». وفي بداية أيلول/ سبتمبر 1999، التقى عرفات وباراك في شرم الشيخ، وبدا أنهما وافقا على خطوات تالية، بما في ذلك مجموعة طموحة من التواريخ المحددة لاتِّفاقيات أوسع. وقد وصفت وزيرة الخارجيَّة، في عبارة مشهورة، دورها كـ«وصيفة» في مساعدتها في التوسط لتحقيق اتِّفاق[21].

كان إنجاز أولبرايت التالي هو إقناع الرئيس السوري حافظ الأسد بالموافقة على استئناف المفاوضات مع إسرائيل، على مستوى رفيع. وفي منتصف شهر كانون الأول/ ديسمبر، ترأس كلينتون المفاوضات في واشنطن، ما بين باراك ووزير الخارجية السوري فاروق الشرع. وبعد بضعة أسابيع، استؤنفت تلك المحادثات في شيبردز تاون، غرب فرجينيا، في 7 كانون الثاني/ يناير 2000، ووضعت الولايات المتّحدة بالفعل مسودة اتِّفاق[22].

بدا الاتِّفاق بين إسرائيل وسورية الآن، في متناول اليد، على الرغم من

(21) للاطلاع على نص اتِّفاق شرم الشيخ انظر موقع بردكنغز على شبكة الإنترنيت.

(22) تسرب نصّ مسودة المعاهدة إلىٰ الصحافة الإسرائيلية وهو ما أغضب السوريين. انظر هآرتز (بالإنكليزية) 13 حزيران/ يونيو 2000.

حقيقة أن باراك لم يستجب بعد، لطلب سورية بالاعتراف بخط 4 حزيران/ يونيو 1967، كخط حدود في المستقبل. ولكن حتى في هذه المسألة الحسَّاسة، بدا كما لو أن السلام ممكن. وفي أواخر شباط 2000، أخبر باراك مجلس وزرائه أن رابين قد وافق على الانسحاب من مرتفعات الجولان إلىٰ حدود 4 حزيران/ يونيو 1967 ـ بشروط محددة ـ وأن حكومته لن «تمحو الماضي»[23].

شجع تحرك باراك الظاهر نحو الموقف السوري، الرئيس كلينتون، إلىٰ درجة أنه قرَّر لقاء الأسد في جنيف، في طريق عودته من جولة في جنوب آسيا، في أواخر آذار/ مارس. وكان كلينتون قد اتصل بالأسد، وأبلغ الرئيس السوري المريض أن لديه أخباراً سارّة. ولكن باراك لم يكن موافقاً بعد على حدود 4 حزيران/ يونيو، وطلب من كلينتون بدلاً من ذلك، أن يستكشف بعض الاقتراحات الوسط مع الأسد مباشرة[24]. وعندما التقى الزعيمان في 26 آذار/ مارس 2000، حاول كلينتون أن يشرح أن باراك لا يستطيع، من الناحية السياسية، العودة تماماً إلىٰ خط 4 حزيران/ يونيو، وأن لديه بعض الاقتراحات

---

(23) آلوف بين وآخرون «باراك رئيس الوزراء السابق يدخل في محادثات مع سورية حول حدود 67» هآرتز (بالإنكليزية 28 شباط/ فبراير، 2000).

(24) وفقاً لمعظم الروايات عن المباحثات، نقل كلينتون الموقف الإسرائيلي التالي: لن يعيد باراك المربع الواقع شمال شرق شاطىء بحيرة طبريا، وهو منطقة كانت خاضعة لسيطرة السوريين قبل حرب حزيران/ يونيو 1967. وعلى سبيل المقايضة كان باراك كما نقل عنه مستعداً لإعادة مثلث الحمة إلىٰ سورية. والمشكلة أن رابين كان قد نوه أن كلتا هاتين المنطقتين ستعود إلىٰ سورية، ولذا فقد رأى الأسد في الموقف الإسرائيلي تراجعاً عن عرض رابين الذي ذهب مسافة أبعد. وأياً كانت التفاصيل الدقيقة فمن الواضح أن كلينتون أساء التقدير عندما نظم القمة. إذ لم يكن ثمة في مواقف الأسد التفاوضية ما يدفع إلىٰ التوقع بأنه سيقبل باقتراح باراك، والذي لم ير فيه بالتأكيد خبراً سعيداً». وقد انتقد جيمس بيكر، الذي كانت لديه خبرة كبيرة في التعامل مع الأسد، فيما بعد كلينتون لعرضه موقف باراك مباشرة على الأسد. ورأى أنه كان من الأفضل صياغة اقتراح أمريكي يقوم على انسحاب إسرائيلي كامل، مقابل سلام وأمن كاملين من جانب سورية. انظر جيمس أ. بيكر الثالث، «السلام خطوة في الوقت المناسب»، نيويورك تايمز، 27 تموز/ يوليو 2000 ص 27.

البديلة للمناقشة. لم ترق هذه المقاربة للأسد، وفي غضون دقائق، وصلت المناقشة إلىٰ حائط مسدود. وغادر كلينتون جنيف خالي الوفاض، وبدت فرصة تحقيق اختراق على الجبهة السورية ـ الإسرائيلية قاتمة. ورداً على ذلك، قرَّر باراك سحب جميع القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان، حيث عدد الخسائر البشرية في قواته في تزايد مثير للقلق. وفي 24 أيار/ مايو، غادرت آخر قوات إسرائيلية الأراضي اللبنانية. ولكن بدا من المشكوك فيه، ما إذا كانت الحدود ستبقى هادئة بدون اتِّفاق مع سورية[25].

في العاشر من حزيران/ يونيو 2000، توفي الرئيس حافظ الأسد، فجأة، بسبب أزمة قلبية على ما يبدو. وكان ابنه بشار، الذي أُعِدَّ لخلافته، شخصية سياسية غير معروفة، وتساءل كثيرون حول ما إذا كان يستطيع أن يملأ مكان والده. ربما يتحول في النهاية إلىٰ مفاوض أكثر مرونة، ولكن اهتمامه الأول سينصب على تعزيز وضعه السياسي داخل سورية. وبالنتيجة، فإن فرصة كلينتون بالقيام بشيء ذي بال، في الأشهر المتبقية له، لتقديم آفاق سلام إسرائيلي ـ سوري، باتت ضئيلة للغاية.

بدأت آخر فرصة متبقية لكلينتون، لإحداث تأثير على سلام الشرق الأوسط في 14 حزيران/ يونيو 2000، عندما التقى بياسر عرفات في البيت الأبيض. وكان كل من عرفات وباراك واقعاً تحت تأثير ضغط سياسي داخلي شديد، من جانب مناوئيه. وكان من الواضح تماماً، أن أياً منهما، لم يكن مستعداً لاتخاذ القرارات الصعبة، التي لا بد منها لتحقيق السَّلام. كما لم يكن واضحاً مدى درجة استعداد كلينتون للمساعدة. وكانت النصيحة المُسكِّنة التي قدَّمها هنري كيسينجر للرئيس تفيد: «أود أن أقول له أن يبقى ساكناً ومستعداً

(25) باراك الذي بذل الكثير من الجهد في هذا المسار من الدبلوماسيَّة، في الوقت الذي تجاهل فيه الفلسطينيين، قد أعطى إشارة الآن أنه مستعد لتحويل انتباهه نحو جهد أخير، للوصول إلىٰ اتِّفاق مع عرفات في 13 أيلول/ سبتمبر، 2000، الذكرى السابعة لأوسلو، وموعد نهائي جديد يفرضه الطرفان. مقابلة مع مشارك أمريكي في المباحثات مع الأسد، 24 نيسان/ أبريل، 2000.

لدور المُسهّل. أود أن أقول له ألا يكون أكثر اهتماماً من الفرقاء «أنفسهم»[26]. وهذا بالطبع كان، حقيقة، المسار الذي انتهجه كلينتون حتى ذلك التاريخ، مع قليل من التظاهر بذلك.

كامب ديڤيد 2

بعد إخفاق لقاء القمَّة بين الأَسد وكلينتون، سرعان ما وجّه الأخير أنظاره إلىٰ الجبهة الإسرائيلية ـ الفلسطينية. وجرى تنظيم محادثات بين دبلوماسيين إسرائيليين وفلسطينيين وأَمريكيين؛ ونشّط كلينتون، على صعيد الاتصالات الهاتفية، باراك وعرفات، وسافرت الوزيرة أولبرايت إلىٰ الشرق الأَوسط ثانية، لترى ما إذا كان الوقت مناسباً للقاء قمة. وكان عرفات غير راغب في الموافقة، مصراً على أن الأمر يحتاج إلىٰ تحضير أكبر، إذا كان سيتم التفاوض على اتِّفاقية كاملة[27]، في حين بدا باراك، على النقيض من ذلك، توّاقاً إلىٰ الانغماس في الجولة الأخيرة لصنع السَّلام، رغم أن ائتلاف حكومته يتقوّض من حوله.

وأخيراً، دعا كلينتون، وعينه على الساعة، الزعيمين، الإسرائيلي والفلسطيني إلىٰ الانضمام إليه في كامب ديڤيد في 11 تموز/ يوليو 2000، في مسعى نهائي لردم الفجوات الكبيرة حقاً، والتي لا تزال قائمة في مواقف الطرفين. ولم تكن هذه القمَّة، بجميع المعايير، القمَّة المضمونة النجاح. ولكن مشاهد العنف التي سبقت في شهر أيار/ مايو، بالإضافة إلىٰ موعد 13 أيلول/ سبتمبر النهائي الوشيك، قد أقنعت الإدارة بالمجازفة.

حملت كامب ديڤيد 2، كما أطلق على الجولة الجديدة من الدبلوماسيَّة، الكثير من أوجه الشبه مع القمَّة الأصلية. ففريقا المفاوضات سوف يُعزلان، في

---

(26) إيلين شيولينو «هذه هي اللحظة في الشرق الأَوسط» (ولكن من أجل ماذا؟) «نيويورك تايمز، مراجعة أسبوعية، 11 حزيران/ يونيو 2000، ص 6.

(27) انظر أكرم هنيه، «يوميات كامب ديڤيد» الأيام (بالعربية) مترجمة في FBIS- جنوب شرق آسيا الجزء الأول، 29 تموز/ يوليو، 2000، ص 1، 11.

المنتجع الرئاسي المعزول، مرَّة أخرى، في جو يشبه التعتيم الإعلامي الكامل، وسيكون الرئيس منخرطاً، بعمق، في محاولة لوضع تسويات، والوعد بتقديم مساعدات أساسية، يمكن أن تساعد في انتزاع مواقف حلول وسط، ليّنة.

كان بين القمتين أيضاً خلافات جوهرية. أوَّلها، أن كلا الزعيمين الإقليميين، كان أضعف بكثير من مناحيم بيغن وأنور السادات في عام 1978. فتآلف باراك الحكومي، لم يكن متلاحماً عندما التحق بالمنتجع الرئاسي المعزول في جبال ميريلاند. وفي حين كان بيغن يستطيع الاعتماد على تأييد المعارضة، بشأن التنازلات التي قد يقدمها للفوز بالسَّلام مع مصر، وتوقع باراك أن يواجه معارضة شرسة إذا ما اقترب من تحقيق المطالب الدنيا للفلسطينيين. وعلى نحو مشابه، كان عرفات موضع شك كبير من قِبل أنصاره، بأنه شديد التطلع إلىٰ أن يكون الرئيس الأول لدولة فلسطينية. وإذا كان ثمن التنازلات المقدمة لإسرائيل، والمتعلقة بالأَراضي، كبيراً، أَو كان هناك تخلٍ عن الحقوق في القدس أَو في مسألة اللاجئين، فإن كثيراً من الفلسطينيين سوف يعارضون الصفقة. فمن وجهة نظرهم، أن القبول بإسرائيل ضمن حدود 1967 تنازل كبير، وينبغي ألا يكون نقطة انطلاق لمزيد من التنازلات. وفي عام 1978، على سبيل المقارنة، كان السادات واثقاً من التأييد الداخلي إذا استعادت مصر أَراضيها، وإن كان كثيرون في العالم العربي قد أدانوا موقفه، لتخليه عن حقوق الفلسطينيين.

أما دور كلينتون نفسه في كامب ديڤيد، فكان قوياً إلىٰ حد يدعو للدهشة. فمع اقترابه من نهاية ولايته، فقد بدا أن كلا الفريقين المتفاوضين لديهما درجة من الثقة به، وكانا غير متأكدين بالنسبة لخليفته. وكان بعضهم يظن أن ذلك قد أعطاه امتيازاً غير عادي بالنسبة لـ «بطة عرجاء»(*). كما ظل كلينتون لدواعي

(*) يوصف الرئيس في نهاية ولايته الثانية بأنه «بطة عرجاء» كناية عن الضعف وعدم القدرة على اتخاذ قرارات مهمّة ـ المترجم.

الدهشة أيضاً، يتمتع بشعبية داخل الولايات المتّحدة، وكان يستطيع الاعتماد على تأييد الحزبين لجهوده في الشرق الأَوسط، على الأقل، إِلىٰ أن يصل إِلىٰ حد يشعر معه أنه بات من الضروري الضغط على إِسرائيل في قضايا حسَّاسة، أَو يطلب من الكونغرس سلة مساعدات ضخمة.

وكان لدى كلينتون قدرة مشهودة على إقناع كل من الإِسرائيليين والفلسطينيين بأنه يتعاطف معهم. وقد تجنّب أخذ موقفٍ تجاه معظم القضايا الخلافية، وكان يحث الطرفين على الوصول إِلىٰ تسويات، متردداً في طرح خطة أَمريكيَّة. ولو أن كامب ديڤيد 2 انتهج نموذج كامب ديڤيد الأصلي، لكان عرضة للضغوط، نظراً لأن أي طرف سيحاول كسب التأييد الأَمريكي لناحيته. وكان يُتوقع من كلينتون، استناداً إِلىٰ سجله السابق، أن يساند باراك أكثر مما يساند عرفات. أما كارتر، على سبيل المقارنة، فكان أشد رغبة بكثير في اتخاذ مواقف ذات طابع جوهري، تؤدي غالباً إِلىٰ استثارة كلا ضيفيه. فقد ساند بيغن في مسألة السلام الكامل، وساند السادات في مسألة الانسحاب الكامل من سيناء. ولم يتردّد في استخدام ضغط مكشوف من أجل جعلهما ينصرفان عن مواقف كان يعتبرها غير معقولة. وقد قال لبيغن في إحدى المناسبات، إنه سيشجب عناده، علناً، إذا أخفقت المباحثات، وقال للسادات بفظاظة: إن العلاقات المصرية ـ الأَمريكيَّة ستنقطع إذا غادرت مائدة المفاوضات. ولم يكن من المتوقع أن يستخدم كلينتون فيما يبدو، مثل هذه التاكتيكات القاسية، ولكن من غير الواضح، ما إذا كان سلوكه التصالحي كافياً لزحزحة الطرفين عن مواقفهما المتشبثة.

وفيما كان الإِسرائيليون والفلسطينيون يجتمعون في كامب ديڤيد في 11 تموز/ يوليو، كانت مواقفهم المعروفة حول القضايا الأساسية متباعدة تماماً. فقد ظل باراك متمسكاً بعدم الانسحاب الكامل إِلىٰ حدود 1967، وعدم الاعتراف بحق العودة للاجئين الفلسطينيين، وعدم إزالة جميع المستوطنات إِلىٰ

ما وراء خط 1967، وعدم إعادة عسكرة الضفَّة الغربيَّة وغزّة، وعدم التخلي عن الأجزاء من القدس التي احتلت في حرب 1967. ولم يكن من دواعي الدهشة، إصرار عرفات على انسحاب كامل من جميع الأَراضي المحتلَّة، بما في ذلك القدس الشرقية؛ وعلى إقامة الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس الشرقية، والاعتراف بحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إِلىٰ ديارهم، أَو التعويض. والقضية الوحيدة التي بدا من المحتمل أن يوافق عليها الطرفان، هي أن شكلاً ما من أشكال الدولة الفلسطينية، سيكون جزءاً من اتِّفاق نهائي. ولو أن هذه المواقف كانت منقوشة في الصخر، لبدا من غير المحتمل الوصول إِلىٰ صفقة.

كان كثيرون يتوقعون أن تخفق المحادثات في كامب ديڤيد 2، بسبب عدم توافق هذه المواقف. ورأى بعضهم أن اتِّفاقية مرحلية أخرى، مع ترك بعض القضايا لقرار آخر، هي أفضل ما يمكن التوصّل إليه. ولكن، كلاً من باراك وعرفات، لم يبد اهتماماً يُذكر باتِّفاق مرحلي آخر. فمثل هذه الصفقة، سوف تعني بالنسبة للفلسطينيين، ببساطة، تأجيل الوقت الذي يمكن أن يتوقعوا فيه حياة طبيعية ضمن دولتهم. وبالنسبة للإِسرائيليين، فإن الحل الذي لا ينهي النزاع مرة وإِلىٰ الأبد، سوف يجعلهم يقدمون التنازلات مع ضيق فرصة المقايضة. كما أن منطق خطوات بناء الثقة الصغيرة، كسبيل للوصول إِلىٰ السَّلام، قد استنفد أغراضه. وبحسب تعبير كلينتون، كان الوقت وقت «السَّلام المريمي»، جهداً درامياً أخيراً للوصول إِلىٰ نهاية الشوط[28].

بدا من الواضح خلال الأسبوع الأول من القمَّة، أن باراك كان مستعداً للسير قُدُماً نحو تلبية بعض مطالب الفلسطينيين، أكثر مما كان يتوقع بعضهم؛ حيث سيعاد ما بين 90 ـ 95٪ من مساحة الضفَّة الغربيَّة وغزّة نهائياً إِلىٰ سيطرة الفلسطينيين، كما سيسمح لعدد من اللاجئين الفلسطينيين، ربما عشرات

(28) جون ف. هاريس، مرجع سبق ذكره، واشنطن بوست، 26 تموز/ يوليو، 2000، ص A22.

الآلاف، بالعودة إلىٰ ديارهم تحت شعار سياسة جمع شمل العائلات، كما سيتم الاعتراف بالدولة الفلسطينية، على أن تكون مجردة، بشكل أساسي، من السلاح. وكانت جميع هذه المواقف تعكس موقفاً إسرائيلياً معتدلاً نسبياً، يتوافق مع مناقشات بيلين ـ أبو مازن التي سبقت ذلك[29]. أما بشأن القدس، فقد كانت المرونة أقل من ذلك بكثير.

كان من المقرر أن يغادر كلينتون إلىٰ لقاء مع زعماء الدول الصناعية في اليابان في 20 تموز. وقبل مغادرته بقليل، يوم الأربعاء، كانت القمَّة قد انتهت إلىٰ الفشل حول قضية القدس. وبعث باراك برسالة إلىٰ كلينتون يقول فيها إنه لا جدوى من الاستمرار، وإن عرفات قد دلّل على أنَّه ليس بالشريك المناسب للسلام، وإنه يهيء وفده للمغادرة بدون التوصّل إلىٰ اتِّفاق. وقد أُعدّ إعلان بالفعل عن انتهاء القمَّة، ولكن عرفات كان غير راغب برؤية الأمور تنتهي على هذه الصورة السلبيَّة، وقال إنه مستعد للبقاء إلىٰ حين عودة الرئيس من اليابان. عند ذاك، حثّ كلينتون باراك على عدم العودة، واستمر الوفدان في محادثات متفرقة، تحت إدارة وزير الخارجيَّة حتى عودة كلينتون في وقت متأخر من يوم الأحد 23 تموز/ يوليو.

كانت قضيَّة القدس معقَّدة، بشكل خاص، لاعتبارات رمزية وجوهرية (انظر الخريطة). فالقدس الشرقية كانت قد أُلحقت بإسرائيل بعد حرب 1967 مباشرة، وبُنيت المستوطنات حول الجانب الشرقي برمته، بقصد معلن، هو فصل المدينة عن بقية الضفَّة الغربيَّة. وظن باراك أنه قد يستطيع إقناع عرفات بالتخلي عن معظم القدس الشرقية، إذا ما قدمت إسرائيل عرضاً سخياً يعيد أجزاء أخرى من الضفَّة الغربيَّة، والموافقة على إدارة مدينة فلسطينية في بعض المناطق المجاورة من القدس الشرقية، التي يقطنها سكان عرب. ولكنه لم يكن

(29) يمكن الاطلاع على النص الكامل في موقع بروكنغز على شبكة الإنترنيت.

مستعداً للاعتراف بسيادة فلسطينية كاملة على أي جزء من المدينة ضمن السور القديم، وكان هذا بالطبع، الجزء الأكثر أهمية من المدينة، في أعين الكثير من الفلسطينيين والمسلمين.

ذُكر أن الأَمريكيين اقترحوا عدداً من الحلول الوسط الممكنة، افترضت جميعها تفكيك فكرة السيادة، بحيث يستطيع كل فريق أن يدعي ممارسة درجة ما من الإشراف، على مناطق ذات أهمية خاصة بالنسبة له. وبدت أفكار سيادة مشتركة أَو مختلطة مقبولة من حيث المعنى المجرد، ولكن، كان يصعب ترجمتها إِلىٰ حقائق على الأرض. وفي وقت متأخر من يوم الاثنين، قام الرئيس بمسعى أخير لإقناع عرفات بإبداء المرونة، ولكن بعد ذلك ببضع ساعات، بعث الزعيم الفلسطيني ملاحظة إِلىٰ الرئيس كلينتون تفيد أنه لا يستطيع الموافقة على التسويات التي اقترحها الجانب الأَمريكي. وعند ظهر يوم الثلاثاء، 25 تموز/ يوليو 2000، أعلن الرئيس كلينتون المرهق والخائب الرجاء، أن القمَّة قد انتهت دون اتِّفاق. وأوضح أيضاً أنه رأى رئيس الوزراء الإِسرائيلي باراك قد أظهر مرونة وجدية أكبر، في تحقيق الهدف من شريكه الفلسطيني[30].

رأى بعض المراقبين إن إخفاق قمة كامب ديڤيد سيكون بمثابة ضربة قاصمة لآمال سلام إِسرائيلي ـ فلسطيني. فيما رأى آخرون، أن الغيمة السوداء كانت ذات خط فضي. فالقضايا الصعبة قد جرى التطرق إليها على أعلى

(30) قدمت كل من جين بيرليز وألين شيولينو تلخيصاً جيداً لما حدث في كامب ديڤيد «في مواجهة الستارة الخلفية للتاريخ، الدراما الرفيعة والمباحثات الصعبة في كامب ديڤيد» نيويورك تايمز، 29 تموز/ يوليو 2000، ص A5 انظر أيضاً هوك ستادر «الفرصة النادرة الضائعة في كامب ديڤيد»، واشنطن بوست، 30 تموز/ يوليو 2000 ص A1. وللاطلاع على مديح كلينتون لباراك، انظر: جين بيرليز «كلينتون ينهي محادثات السلام الجامدة» نيويورك تايمز 26 تموز/ يوليو، ص A1-10 الرواية الأكثر موثوقية عن المنظور الفلسطيني يمكن الاطلاع عليها عند أكرم هنية في يوميات كامب ديڤيد، مرجع سبق ذكره، 29 تموز/ يوليو 31 تموز/ يوليو، 1، 3، 6، 8، 10 آب/ أغسطس، 2000.

مستوى، وتحقّق بعض التقدم في دائرة واسعة من الموضوعات، على الرغم من أنه لم يتم الاتفاق على أي من المشكلات الجوهرية. ولعل كل طرف كان بحاجة إلىٰ مزيد من الوقت، كي يستوعب حقائق ما هو مطلوب من أجل تحقيق السَّلام، كما كان بحاجة إلىٰ توفير الدعم الداخلي. والحقيقة، أن المسؤولين الأَمريكيين قد تسرّعوا في الاستنتاج بأن عرفات ربما لم يكن ينوي الوصول إلىٰ اتِّفاق نهائي في كامب ديڤيد، مفضلاً، بدلاً من ذلك، أزمة تُظهر لشعبه أنه وقف صامداً أمام الضغوط الأَمريكيَّة والإسرائيلية. ولعله سيكون مستعداً، بعد أن يعزّز قاعدته السياسية الهشّة، لاستئناف المفاوضات في حالة نفسيَّة بنَّاءة أكثر[31].

غادر باراك كامب ديڤيد وهو يحظى برضى كلينتون عنه. ولدى مغادرته، سأل الرئيس ما إذا كان يستطيع أن يقول شيئاً يمكن أن يساعده عند العودة إلىٰ وطنه، وخاصة فيما يتعلَّق بالقدس. فقد بدا باراك قلقاً من بعض الأنباء التي تسرّبت عن المفاوضات، حول المدى الذي كان مستعداً للذهاب إليه، والذي يمكن أن يسيء إليه أمام الجمهور الإسرائيلي. ونتيجة لذلك أجرى كلينتون، في 28 تموز/ يوليو 2000، مقابلة مع التلفزة الإسرائيلية كرّر فيها تأييده لباراك، ودافع عنه ضد تهمة بيعه أمن إسرائيل بثمن ضئيل، وحذّر عرفات من التفكير بإعلان الدولة الفلسطينية من جانب واحد، وأكَّد على أنَّه قد يفكِّر في نقل السفارة الأَمريكيَّة من تل أبيب إلىٰ القدس قبل نهاية السنة[32]. ووجد الفلسطينيون في هذه المقابلة، محاولة مكشوفة لمعاقبة عرفات وردوا على ذلك بالوقوف وراء زعيمهم.

---

(31) مقابلة مع مسؤولين أمريكيين شاركوا في محادثات كامب ديڤيد الثانية في 28 تموز/ يوليو سنة 2000.

(32) جون كيغنر «كلينتون يلمح إلىٰ استعداده لنقل السفارة إلىٰ القدس»، نيويورك تايمز، 29 تموز/ يوليو، 2000 ص A1-5.

القدس القديمة داخل السور

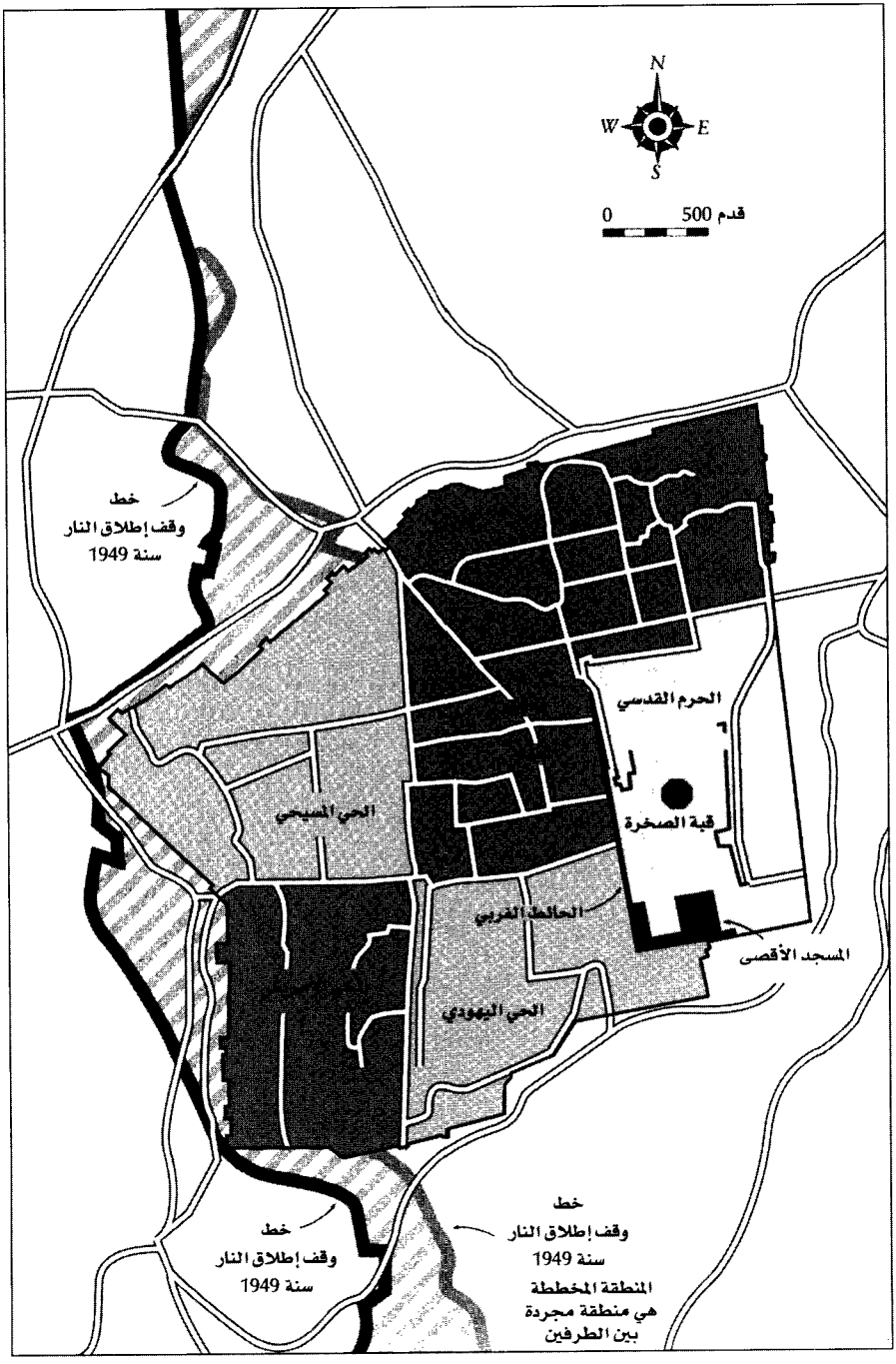

لماذا أخفقت كامب ديڤيد ـ 2؟ من السهل وضع اللوم على هذا الفريق أَو ذاك بسبب عناده، ولا شك أن الطرفين يتقاسمان بعض الملامة. ولكن المتفاوضين كانوا يتعاملون مع قضايا بالغة الصعوبة، تتطلّب مقداراً كبيراً من المناقشة الدقيقة والتسوية. لقد كانت إحدى مشكلات مقاربة أوسلو أنها أجّلت النظر في هذه القضايا، اعتقاداً بأن المسيرة التدريجية، من خلال الاتّفاقات الجانبية، سوف تساعد على بناء الثقة بين الجانبين.

لم تكن «نظرية أوسلو» خاطئة تماماً. فبعض القضايا بدت أكثر سهولة مع مرور الوقت، مثل التأسيس النهائي لدولة فلسطينية. وعلى الصعيد الإنساني، استطاع المفاوضون الإسرائيليون والفلسطينيون إقامة علاقات شخصية ودية، ولم يلجأ أي جانب إِلىٰ التهديدات الصريحة باللجوء إِلىٰ العنف، إذا ما أخفقت المفاوضات.

ومن المذهل، مع هذا، أن يقول المشاركون في كامب ديڤيد 2 بصراحة، إن موضوع القدس لم يناقش فعلاً حتى اليوم الأخير أَو نحو ذلك. فإذا كان الأمر كذلك، فليس من دواعي الغرابة أنه لم يتم التوصّل إِلىٰ اتّفاق حول مواقف تسوية. والحقيقة أن معظم ما جرى بحثه في كامب ديڤيد 2 كان له طابع غير رسمي وارتجالي. إذ لم يدون شيء على الورق، خشية أن يتسرّب ويحرج هذا الفريق أَو ذاك. كما أن التفاهمات الشفوية كانت تتبدد عندما كان يحاول الأَمريكيون ترجمتها إِلىٰ عبارات محسوسة في اتّفاق. والأسلوب الذي استخدم في كامب ديڤيد 1 ـ أسلوب «النص التفاوضي الواحد»، والذي كان يراجع بانتظام في ضوء ردود فعل كل جانب ـ لم يستخدم في كامب ديڤيد 2، ولذا كان من الصعب أن نعرف، في نهاية المحادثات، ما الذي تم الاتفاق عليه بالفعل، إذا كان ثمة شيء تم الاتّفاق عليه. ولما كان لا يوجد شيء نهائي، حتى يتم الاتّفاق على كل شيء، وخاصة القدس، فقد كان من الدقيق فنياً القول إنه لم يتم التوصل إِلىٰ اتّفاق حول أي شيء. وفي الحقيقة، أن مواقف الحلول

الوسط المشروطة، التي بحثت في كامب ديڤيد لن يكون من السهل كثيراً إزاحتها، بالطبع، من الطاولة، وستكون بمثابة نقطة علام للمتفاوضين، عندما تُستأنف المحادثات.

خرج كلينتون من كامب ديڤيد بمفخرة معالجة القضيَّة التي تتحدَّى السَّلام الإسرائيلي ـ الفلسطيني. قلائل شعروا أن القضيَّة لا تستحق هذا الجهد، وقلة من الأَمريكيين انتقدوا كلينتون على الطريقة التي لعب فيها دوره. وتأكد للإسرائيليين بصورة عامة، أن كلينتون كان صديقاً حميماً. أما الفلسطينيون فلم يكونوا متأكدين تماماً، رغم أن عرفات كان حريصاً على عدم مهاجمة كلينتون شخصياً. ومع هذا، فإن كلينتون قد قامر وخسر، حتى وإن كان الفشل لا يعزى، كما رأى معظم المراقبين، إلىٰ شيء قام به أَو لم يقم. وإذا كان ثمة انتقاد بدا انتقاداً صحيحاً، فهو لا يعود إلىٰ أن كلينتون قد أساء إدارة المفاوضات في كامب ديڤيد، بل إلىٰ أن القليل من السنوات السبع الماضية، قد استخدم لوضع أساس لمناقشة جوهرية للقضايا التي تمّ التركيز عليها أخيراً في القمَّة. ولعل ولع كلينتون بالأحداث التي تستمر طوال الليل، قد خدمه كثيراً في الماضي، ولكنه لم يُجْدِه نفعاً هذه المرة.

على الرغم من أن كامب ديڤيد 2 قد انتهى بعدم التوصل إلىٰ اتِّفاق شامل، وأن باراك وكلينتون قد أثارا التساؤلات حول رغبة عرفات في التفاوض بجدية وأمانة، فإن أحداً لم يكن مستعداً لأن يعلن وفاة عمليَّة السَّلام. والحقيقة أن جميع الأطراف بدت متفقة على أنه تم تحقيق بعض التقدم حول قضايا بالغة الصعوبة، مثل القدس، والمستوطنات، والحدود، واللاجئين والأمن. وهكذا واظب كلينتون على تشجيع استئناف المفاوضات، وترصّد إمكانية عقد قمة أخرى، إذا أمكن تضييق الفجوات على نحو مُرض.

المفاوضون الفلسطينيون، الذين أصيبوا بخيبة أمل قمة تموز/ يوليو، بسبب ما اعتبروه انحيازاً أَمريكياً لصالح إسرائيل، كانوا يتحدَّثون عن الحاجة

إلىٰ أن تكون الولايات المتّحدة وسيطاً نزيهاً، وإلىٰ أن تطرح اقتراحات بحلول وسط من عندها، ولا تحابي الأفكار الإسرائيلية فحسب. كذلك تحدَّث باراك، الذي بدأ ولايته كرئيس للوزراء، باستبعاد دور وساطة أَمريكيَّة فعَّال، عن الحاجة إلىٰ مقترحات أَمريكيَّة إذا كان هناك اتِّفاق نهائي. وكان كلينتون قد أوضح أنه مستعد لتقديم مثل هذه الأفكار عندما يستأنف الفريقان المحادثات، ويحقِّقان تقدّماً أولياً من تلقاء نفسيهما.

كان الزمن مصدر قلق لكل من باراك وكلينتون. فقد كان تأييد باراك في الكنيست عند الحافة، وعندما عاد أعضاء الكنيست إلىٰ الاجتماع في أواخر شهر تشرين الأول/ أكتوبر، كان ثمة فرصة لتمرير مشروع قانون يقضي بإجراء انتخابات جديدة. وكان على كلينتون، بدوره مواجهة حقيقة أن الفترة الزمنية المتبقية له في السلطة، تتناقص. لقد استطاع أن يتفادى أعراض «البطة العرجاء» فترة أطول من معظم من سبقوه، ولكن، مع مرور الوقت، بات عاجزاً بدوره عن الاضطلاع بدور فعَّال، كصانع سلام.

انتفاضة جديدة

عند نهاية شهر أيلول/ سبتمبر، لاحت بارقة أمل بأن تعود المفاوضات إلىٰ مسارها. فقد اجتمع باراك وعرفات، في لقاء وصفه الجانبان بأنّه لقاء ودي على نحو غير عادي. ولكن في غضون أيام، اندلعت دورة خطيرة جديدة من العنف.

ففي يوم الخميس، 28 أيلول/ سبتمبر 2000، تجاوز زعيم المعارضة الليكودي أرييل شارون إحدى أكثر القضايا حساسية في المفاوضات، بإصراره على زيارة الحرم الشريف/ منطقة جبل المعبد. ورافقه في تلك الزيارة مئات من رجال الشرطة الإسرائيلية. ورد الفلسطينيون بغضب على ما اعتبروه استفزازاً متعمّداً، واستعراضاً للقوة الإسرائيلية ودعوة إلىٰ سيطرة إسرائيل على الأماكن المقدسة. وبعد صلاة الظهر في اليوم التالي، تدفقت أعداد كبيرة من الشبان

الفلسطينيين من المساجد، وشرعوا يقذفون بالحجارة يهوداً كانوا يصلون عند «الحائط الغربي» تحت الحرم. ولما كان ذلك عشية «روش هاشاناه»، السنة العبرية الجديدة، فقد تجمع عدد كبير غير عادي من المصلين. وأطلقت الشرطة الإسرائيلية النار على الحشود الفلسطينية، وقتلت سبعة أشخاص، وجرحت الكثيرين. وهكذا بدأت عدة أشهر من العنف أوشكت على تدمير فرصة السَّلام.

خلال الأسابيع الأولى من شهر تشرين الأول/ أكتوبر، امتدت الاصطدامات ما بين رماة الحجارة الفلسطينيين والشرطة الإسرائيلية، لتشمل قوات الشرطة الفلسطينية المسلحة بأَسلحة آلية، ووحدات نظامية من الجيش الإسرائيلي، مستخدمة الدبابات والحوامات المجهزة بالمدافع. وبعد ذلك بوقت قصير، انضم مستوطنون إسرائيليون مسلحون ومواطنون عرب إسرائيليون إلىٰ المعمعة، في ما بدا **انتفاضة** أخرى، إذا لم نسمّ ذلك حرباً شاملة. وكان عدد الضحايا يتزايد يومياً، حتى وصل إلىٰ ما يزيد على 350 قتيلاً عن نهاية العام، 90٪ منهم كانوا من الفلسطينيين، بما في ذلك بعض المواطنين العرب المقيمين في إسرائيل.

التقت الوزيرة أولبرايت، أثناء القتال، بكل من باراك وعرفات في باريس، في محاولة لترتيب هدنة. وكان عرفات رافضاً لإصدار نداء لإنهاء القتال، قبل أن توافق إسرائيل على تحقيق دولي حول أسباب الصدامات. وتحدثت الأنباء عن تعهدات شفوية لتخفيف حدة التوتر، ولكن في غضون أيام، استُؤنفت أعمال العنف، بما في ذلك عمل استفزازي متعمد من جانب الفلسطينيين، الذين دمَّروا مركزاً دينياً يهودياً في نابلس، بعد وقت قصير من إخلاء الجنود الإسرائيليين له. وأصدر باراك بعد ذلك، إنذاراً مدته 48 ساعة، تنتهي مباشرة بعد «يوم الغفران». وطلب إلىٰ عرفات وقف العنف. وتوصّل كثير من الإسرائيليين إلىٰ قناعة، بأنَّه كان يحرض الجماهير، عن عمد، في إطار

استراتيجية أوسع، ترمي إلىٰ حشد التأييد العربي والدولي إلىٰ جانبه. وكان كلينتون غير راغب في أن يشير بإصبعه مباشرة إلىٰ عرفات، ولكن كثيراً من أعوانه، أفادوا أنَّهم بدأوا يندهشون مما يفعل عرفات، وما إذا كان ما يزال الشخص الذي يمكن التعامل معه.

وجاء يوم الذروة في الأَزمة في 12 تشرين الأول/ أكتوبر. اقترب جنديان إسرائيليان بطريقة ما، من مسيرة جنازة فلسطينية في وسط رام الله. ودعا الجمهور إلىٰ الانتقام، وأُمسك بالجنديين، واقتيدا إلىٰ مخفر شرطة قريب. وتجمهر حشد من الناس، واندفعوا إلىٰ المخفر، وقتلوا الجنديين وسحلوا جثة أحدهما في الطرقات. واستشاط الإسرائيليون غضباً، وأمر باراك المروحيات بإطلاق نيران مدافعها الرشَّاشة على مخفر الشرطة في رام الله، وكذلك على موقع قريب من مكان إقامة عرفات في غزّة. وفي اليوم نفسه، اقترب قارب صغير من المدمرة الأميركية كول (USS Cole) في ميناء عدن اليمني وفجّرها، وقُتل 17 بحاراً أَمريكياً. ومن غير المعروف ما إذا كان الهجوم ذا صلة مباشرة بالأحداث في الشمال، ولكنه تبين للأَمريكيين، كيف يمكن أن يتحوّل المشهد في الشرق الأَوسط بسرعة فائقة، من سلام وشيك إلىٰ نزاع شامل.

طوال هذه الأزمة المأساوية الطويلة، كان كلينتون وفريقة يستخدمون الهاتف، بلا هوادة، في محاولة لوضع حد للقتال، واستئناف المفاوضات على مستوى رفيع. ولكن كلاً من الإسرائيليين والفلسطينيين معاً، وكذلك بعض الزعماء العرب، كانوا بطيئين في الاستجابة لنداءات كلينتون، هذه المرة، خلافاً لما كان عليه الأمر في مرات سابقة. وشعر كلينتون، الذي أنفق الكثير من الجهد والوقت مع كل من باراك وعرفات، بالإحباط، الآن، وهو يرى العنف يبدِّد كل آماله بأن يكون صانع سلام. وانضم آخرون إلىٰ الجهود الرامية إلىٰ وقف إطلاق النار. وأبدى كل من الأمين العام للأُمم المتَّحدة كوفي أنان والرئيس المصري مبارك، الكثير من النشاط في هذا الصدد.

ووافق عرفات وباراك أخيراً على لقاء قمة في 16 تشرين الأول/ أكتوبر يعقد في شرم الشيخ، بحضور كلينتون، وكوفي أنان، والملك عبد الله الثاني ملك الأردن، ومبارك، وممثّل الاتّحاد الأوروبي، ولكن، كان التركيز الآن على التوصل إلىٰ إعادة تثبيت الهدنة، أكثر من التقدم في البحث عن اتّفاق شامل. وفي منتصف يوم 17 تشرين الأول/ أكتوبر، خرج كلينتون من ماراثون المفاوضات، ليعلن أن الفريقين قد وافقا على محاولة إنهاء العنف، وعلى تشكيل لجنة للتحقيق في الأَزمة.

اصطبغت المرحلة الأخيرة من مراحل صنع كلينتون للسلام، بالدراما السياسية في الولايات المتّحدة وإسرائيل، وفي أوساط الفلسطينيين. فقد ذهب الأَمريكيون إلىٰ صناديق الاقتراع في شهر تشرين ثاني/ نوڤمبر، وانقسمت أصواتهم بالتساوي تقريباً، بين نائب الرئيس آل غور، وحاكم تكساس جورج. و. بوش. فاز غور بالتصويت الشعبي، بأصوات تزيد على ما حصل عليه بوش بمقدار 500 ألف صوت، ولكن أصوات الهيئة الانتخابية انحصرت، في النهاية، عند أصوات ولاية فلوريدا، حيث كان الهامش بين المرشحين ضيقاً للغاية، بحيث لم يتخذ القرار النهائي بتحديد من هو الفائز، إلاَّ في منتصف كانون الأول، عندما وضعت المحكمة العليا أخيراً، حداً للنزاع السخيف حول كيفية عد الأصوات. وخرج جورج. و. بوش فائزاً، وبدا توّاقاً إلىٰ تشجيع كلينتون في تحقيق رغبته في التوصّل إلىٰ اتّفاق إسرائيلي ـ فلسطيني، في الأسابيع التي تبقت من رئاسته.

في غضون ذلك، كان ائتلاف باراك الحكومي على وشك الانهيار في إسرائيل، وفي خطوة لاستباق خصومه، أعلن باراك استقالته، فارضاً بذلك إجراء انتخابات جديدة لاختيار رئيس للوزراء في 6 شباط/ فبراير، 2001. وخلال هذه الفترة الانتقالية، سيبقى باراك رئيساً للوزراء، ويحاول إنهاء المفاوضات، بحيث تكون الانتخابات بمثابة استفتاء على السَّلام. وكان نجاح

استراتيجيته العالية الخطورة، موضع جدل، ولكن كثيرين كانوا يوافقونه على أن انتخاب خصمه أريل شارون، سيضع حداً لعمليَّة السَّلام.

كان تقويم موقف عرفات السياسي أشد صعوبة. فقد بدا أن الانتفاضة تعزّز من بعض الوجوه مركزه المهتز، ولكنها من جهة أخرى، قد عملت على تثوير الرأي العام، وإضعاف فكرة السَّلام مع إِسرائيل. وداخل حركة فتح التي يزعمها عرفات، كانت القيادات الشابة تنتقد بصراحة فكرة المفاوضات برمتها.

ومع هذا، فقد استطاع كلينتون إقناع الجانبين على القيام بمسعى آخر في نهاية شهر كانون الأول/ ديسمبر. وبعد خطوات تمهيديَّة مطوّلة، واتصالات هاتفية لا تنتهي مع المعنيين، التقى كلينتون أخيراً مع المفاوضين الإِسرائيليين والفلسطينيين في البيت الأبيض في 23 كانون الأول/ ديسمبر 2000 ليطرح اقتراحاته الخاصة بالتسوية[33]. كانت خطة كلينتون، كما باتت توصف على الفور، تتصور دولة فلسطينية على 95٪ من مساحة الضفَّة الغربيَّة وغزّة، مع أفكار غامضة حول مقايضات الأَراضي للسماح لإِسرائيل بضم معظم المستوطنين إِلىٰ أَراض خاضعة للسيادة الإِسرائيلية، مع التعويض على الفلسطينيين بأراض إضافية في محيط غزّة.

وحول قضية القدس الحسَّاسة، طرح كلينتون حلاً وسطاً يتضمن إعطاء المناطق العربية المجاورة للفلسطينيين، بما في ذلك المناطق المسيحية والإسلامية من «المدينة القديمة»، والأهم من ذلك، منطقة الحرم الشريف. وسوف تحتفظ إِسرائيل بالحي اليهودي. وبممر عبر الحي الأرمني، كما تحتفظ

(33) رواية موثوقة عن مقترحات كلينتون، يمكن الاطلاع عليها على موقع بروكينغز على الإنترنيت، كما يمكن الاطلاع على الرد الفلسطيني في «ملاحظات وأسئلة من الفريق الفلسطيني المفاوِض بشأن الاقتراح الأمريكي» دائرة شؤون المفاوضات، م. ت. ف. www nad-plo.Org/cye 15 html في 7 كانون الثاني/ يناير، 2001 لخص كلينتون اقتراحاته في خطبة عامة أمام «منتدى إِسرائيل السياسي»، انظر النص في موقع بروكينغز على الإنترنيت (سبق ذكره).

بالإشراف على «الحائط الغربي» وجبل المعبد تحت الحرم الشريف.

وفي حين كانت قضية القدس في كامب ديڤيد 2 بمثابة عقبة كأداء، بدا كلا الطرفين، هذه المرة، قريباً من القبول بتسوية كلينتون، على الرغم من أن بعض مكوناتها ظلّت موضع اعتراض صارم. وبدت القضيَّة المستعصية الآن، هي الاقتراح الخاص بمعالجة حق عودة اللاجئين. فقد كانت الصورة العامة في خطة كلينتون، أنه في مقابل القدس العربية ينبغي على الفلسطينيين أن يتخلوا عن «حق العودة». ولم تكن هذه قراءة عادلة للخطَّة، ولكن كلينتون قد بيَّن أنه لا يمكن أن يتوقع من دولة إسرائيل القبول بحق مطلق لعودة اللاجئين، وأن الخيار الأكثر واقعية بالنسبة للاجئين، هو العودة إلىٰ الدولة الفلسطينية الجديدة، وليس إلىٰ ديارهم الأصلية. وكان رد الفعل الفلسطيني على هذه الصيغة لحقوق اللاجئين، سلبياً بصورة عامة.

بدا باراك يشعر أن أمله الوحيد، أن يخوض الانتخابات وفي يده صفقة ما. لذا، فقد اجتمع مع أعضاء حكومته، وحصل على قبول بموافقة مشروطة على اقتراحات كلينتون. وكان هذا يعني عملياً، أنه إذا وافق عرفات عليها كأساس للتفاوض فسيوافق بدوره. وكان عرفات أقل استعداداً مبدئياً لذلك. فهو وفريقه المفاوِض، كانوا يشكون بأن كثيراً من التفصيلات الحاسمة ما تزال بحاجة إلىٰ توضيح. ولم يرغبوا في أن يُكرهوا على مواعيد نهائية مصطنعة، لاتخاذ قرارات مصيرية (وربما غير شعبية).

كان على عرفات أن يعرف أنه حتى لو وافق، فما يزال أمامه طريق طويل وصعب للغاية من المفاوضات، قبل الوصول إلىٰ اتِّفاق نهائي، وأن كلينتون لن يكون حاضراً في تلك المرحلة. ويبدو أن عرفات لم يكن يقلقه أن الرئيس الجديد جورج و. بوش سيكون أقل دعماً لتسوية سلمية عادلة من كلينتون. والحقيقة أن كثيراً من العرب كانت لديهم آمال كبيرة بأن بوش، بارتباطاته المعروفة بصناعة النفط، سيكون أكثر تعاطفاً مع اهتماماتهم.

وكان على عرفات القيام بحسابات دقيقة تجاه باراك الذي لم يكن يثق به تماماً، ولكنه كان بالتأكيد شريكاً، أفضل من أريل شارون. ولو أن عرفات رفض خطة كلينتون بشكل صريح، فقد لا يحظى عرفات إلاّ بفرصة ضئيلة لإعادة انتخابه في شباط. ومن جهة ثانية، فإن عرفات إذا قال نعم، أو ربما، فسيكون هناك فرصة كبيرة لهزيمة باراك. وفي هذه الحالة فإن تنازلات عرفات قد تعرضه إلىٰ انتقادات حادة من جانب معسكره.

في الثاني من كانون الثاني/ ديسمبر 2001، التقى عرفات بكلينتون في البيت الأبيض في مناقشة مطولة. وفي اليوم التالي، قال الناطقون باسمه إن الفلسطينيين مستعدون للقبول بالمقترحات، بشروط، كأساس لمزيد من المفاوضات. وهذا، قد ترك كلينتون في نهاية فترة ولايته، والفريقان يقبلان بدون حماسة، بإطاره العام، ولكن مع عدم توفر الوقت للتحرّك نحو اتّفاق كامل. وكان المزاج السائد لدى الإسرائيليين والفلسطينيين كليهما، بعيداً عن تأييد خطة كلينتون. ومن دواعي المفارقة، أن الرئيس الذي كرّس الكثير من جهوده في الأشهر الأخيرة لقضيَّة السَّلام في الشرق الأَوسط، قد غادر تاركاً لوريثه منطقة مليئة باحتمالات الانفجار.

إرث كلينتون

سيكون إرث كلينتون في الشرق الأَوسط مزيجاً غريباً. فقد اقترب كثيراً من أن يكون الرئيس الذي ساعد على إيصال المنطقة إلىٰ السَّلام، بحيث كان بعضهم يرغب في منحه الكثير من التقدير على جهوده. ولكن في علم السياسة، نادراً ما يُعتدُّ بالنوايا الطيبة. ومع هذا، فقد نجح في إقامة علاقة جدية مع معظم القادة البارزين على المسرح العربي ـ الإسرائيلي، وأعطى شرعية لفكرة أن السَّلام سوف يتضمن، في النهاية، إيجاد دولة فلسطينية، كما أن مقترحاته في شهر كانون الأول/ ديسمبر 2000، قدّمت إطاراً جدياً وجوهرياً لمفاوضات نهائية، وأكّدت جهوده مركزية المصالح الأَمريكيَّة في سلام الشرق

الأَوسط. وقد حظيت سياسته بمساندة واسعة من قِبل الرأي العام الأَمريكي، وكان كلا الحزبين مؤيداً له بصورة عامة. وعندما تُستأنف المباحثات في يوم ما، فمن المحتمل أن تبنى على مواقف مبكرة استكشفها كلينتون في سنته الأخيرة التي حفلت بانغماس مفرط في عمليَّة السَّلام.

واللغز في رئاسة كلينتون وصنع السَّلام العربي ـ الإِسرائيلي هو: هل كان كلينتون يستطيع واقعياً أن يحقِّق أكثر مما فعل، وخصوصاً في الفترة التي كان فيها رابين وباراك رئيسين للوزراء، ليس من السهل قراءة السجل. فقد كانت هناك لحظات من الأمل والإنجاز الحقيقي، بما في ذلك اتِّفاقيات أوسلو وتوابعها، ومعاهدة السلام الأردنية ـ الإِسرائيلية، واتفاقا «الخليل» و«واي». وحتى قمة كامب ديڤيد 2 غير الناجحة، وخطة كلينتون كان لها فضل في النظر ومتابعة أصعب القضايا الجوهرية موضع النِّزاع. وقد لعبت الولايات المتّحدة، بدرجات مختلفة، دوراً أساسياً في تشجيع هذه الخطوات على طريق السَّلام.

أمضى كلينتون وفريقه الكثير من الوقت، وبذلوا الكثير من الجهد في هذه القضايا. ولا أحد يستطيع أن يلومه على إهمال المنطقة، وخصوصاً في ضوء الأَزمات الدولية العديدة الأخرى التي كانت تتطلّب الاهتمام في فترة رئاسته. ومع هذا، فثمة إحساس مزعج بأن كلينتون وزملاءه كان بوسعهم أن يفعلوا أكثر، وخاصة في فترته الأولى. إذ ربما كان بوسعهم أن يسرّعوا الخطوة الدبلوماسيَّة عندما كان رابين في ذروة نفوذه، وهو وقت كان ملائماً بشكل فريد لصنع السَّلام؛ وربما كان بوسعهم أن يساعدوا في حسم الصفقة ما بين إِسرائيل وسورية؛ وأن يلزموا نيتانياهو بشروط أوسلو بصورة أكثر فعالية؛ وأن يقنعوا عرفات بالتحرّك نحو مفاوضات الوضع النهائي بسرعة أكبر، وأن يلتزم بالجانب المنوط به من اتِّفاق أوسلو بدون غموض؛ وأن يحثّوا باراك على التحرّك بسرعة أكبر، نحو وضع إطار «الأرض مقابل السَّلام» مع الأسد، وأن يبدأوا المحادثات بشأن القدس، قبل وقت كاف من قمة كامب ديڤيد 2.

وفي حين، أن أي تحليل لتفسير لماذا لم يفعل كلينتون أكثر، يظل تحليلاً افتراضياً، يبقى من المفيد إلقاء نظرة على الافتراضات الرئيسية المتنافسة. ثمة أربعة افتراضات تخطر في البال. أولها، هناك مسألة الشخصية الرئاسية. وثانيها، أن المرء يستطيع أن يشير بإصبعه إلىٰ الكونغرس ونفوذ الجماعات الموالية لإسرائيل. وثالثها، أن المرء يستطيع أن يتفحص الإدعاءات الأساسية خلف الاستراتيجية التي أوجدها فريق الشرق الأَوسط. ورابعها، أن المرء يستطيع وضع اللوم بسبب الجمود، على فريقي النِّزاع بشكل واضح، مجادلاً بأن هناك حدود لما يمكن للولايات المتّحدة فعله عندما يكون اللاعبون الإقليميّون غير مستعدين للمجازفة من أجل السَّلام. دعونا نتفحص كل واحدة من هذه المناقشات.

أولئك الذين يعرفون كلينتون جيداً، يقولون إن نقاط القوة والضعف لديه، لا ينفصل بعضها عن بعض[34]. فهو ذكي، ولكنه لا يركّز، جذّاب ولكنه غير وفي، حاذق سياسياً، ولكنه مستقل ذاتياً بعمق، مرن دون اقتناع راسخ. ويرى بعضهم في كلينتون أنه نتاج جيله، نتاج طفولة مضطربة، وأبوين مدمنين فاسدين. وعلم النفس يستطيع أن يذهب بعيداً في فهم شخصية معقدة مثل كلينتون، ولكن يبدو واضحاً، أن كلينتون كانت لديه حاجة شديدة للاعتراف به، وللنجاح؛ وكان يميل نحو الحلول الوسط، أكثر مما يميل إلىٰ المواقف المبدئية، كما كان ماهراً في استخدام الكلمات والعلاقات من أجل تكوين تحالفات تدعمه وتدعم سياساته.

وتتجلى مزية هذه الصفات بالنسبة إلىٰ إدارة سياسة الشرق الأَوسط، في قدرته على التأثير في كثير من زوّاره ـ من عرب وإسرائيليين على حد سواء ـ وفي ذكائه وجدية هدفه. لم يحظ رئيس بثقة غالبية الإسرائيليين كما فعل

(34) ديڤيد مارانيس، «الأول في صفه. . .» (مرجع سبق ذكره): سايمون وشوستر 1995، ص 450 ـ 464.

كلينتون، لأنه كان قادراً على إقناعهم بأنه يتفهم معضلات أمنهم الفريدة من نوعها، وصدمتهم التاريخية. أما شخصية بوش الأقل وجدانية، بالمقارنة مع كلينتون، فقد جعلت الإسرائيليين يشعرون بالبرودة. ومن دواعي الدهشة، أن بعض الفلسطينيين، في ولاية كلينتون الثانية، كانوا يقولون إن كلينتون هو أول رئيس يفهمهم. هذه القدرة على تجاوز الحواجز، وجذب كلا طرفي النِّزاع، كانت مزية كلينتون، وكذلك كان عجزه عن اتخاذ مواقف قوية مع أي من الطرفين، وخاصة الطرف الإسرائيلي الأقوى سياسياً. كانت المواعيد النهائية تأتي وتنصرم، والاتِّفاقيات تُخترق، وكان كلينتون يجد صعوبة في رسم خط صارم، أَو التهديد بالعقوبات. ولم يكن ليجازف بإثارة الجدل، باتخاذ مواقف قد تؤذي الطرف الإسرائيلي بشكل خاص. ويبدو أن ميل كلينتون، جزئياً على الأقل، إلىٰ التباطؤ، وإلىٰ التردّد بدلاً من المجابهة، راسخ الجذور في شخصيته.

والتفسير الممكن، الثاني، لمقاربة كلينتون الحذرة نحو صنع السَّلام العربي ـ الإسرائيلي يتضمن الكونغرس. إذ لا شك أن الكونغرس كان مشكلة بالنسبة له. فالجمهوريون كانوا يسيطرون على كلا المجلسين. والقرارات المؤيدة لإسرائيل تتخذ، عادةً، بتأييد إجماعي تقريباً في مجلس الشيوخ والنواب. ومع هذا، فإن مزاج الجمهور الأَمريكي، مع تأييده لإسرائيل، لم يكن يستلطف نيتانياهو كثيراً. ومعظم الجماعات اليهودية، بما في ذلك «لجنة العلاقات العامة الأَمريكيَّة ـ الإسرائيلية» الشهيرة (إيبال) كانت تحت إدارة معتدلة نسبياً. وقضايا مثل توسيع المستوطنات، ورفض تنفيذ اتِّفاقي أوسلو وواي، ليست بالأمور التي يستطيع نيتانياهو الاعتماد فيها على كثير من الدعم الأَمريكي، إذا ما اتخذ الرئيس موقفاً صلباً. صحيح أن كلينتون عليه أن يستخدم بعض رأس ماله السياسي الثمين، في أية منازلة مع نيتانياهو، ولكن في ولايته الثانية، كان بوسعه أن يتشدّد قليلاً من أجل أن تعزيز إرثه التاريخي. توجه

كلينتون نحو من يقدمون المساندة المالية، وشرع يتحدَّث في بداية 1999 عن هدفه السياسي الكبير الأخير، وهو انتخاب آل غور عام 2000. وتستمر الحملة الدائمة. لقد كانت السياسة الداخلية والكونغرس عائقين، دون شك، في وجه سياسة كلينتون الشرق أَوسطية. ولكنه لم يقترب من اختبار حدود الممكن، أَو ينغمس في جهد لتخفيف الضغوط التي لا بد أن يقع أَي رئيس تحت وطأتها، في التعامل مع الكونغرس.

اعتنق كلينتون منذ بداية رئاسته نظرية «النضج» المريحة التي نصحه بها مستشاروه، وخاصة دينيس روس ومارتن أنديك. وهذا ما منحه دور المُسهّل، ومساعدة الأطراف ذوي النوايا الحسنة على صنع السَّلام عندما يجنحون إِلىٰ ذلك. وقد بدا هذا موقفاً صالحاً للتطبيق، طوال فترة ولاية رابين وبيريز وباراك في إِسرائيل، وأعطته أوسلو الشرعية. وكان بوسع كلينتون أن ينعم بألق صانعي السَّلام، دون أن يتحمّل أعباء كبيرة. ولكن هذه الطريقة في فهم النِّزاع العربي - الإِسرائيلي، الملائمة تماماً لكلينتون، كانت تفترض أن الولايات المتّحدة لن تبذل إِلاَّ جهداً متواضعاً من جانبها، وأن الوقت في صالح السَّلام، وأن الولايات المتّحدة لا يسعها أن تفعل إِلاَّ القليل، من أجل تسريع عملية النضج، بإضافة حساب المكاسب والخسائر لفريقي النِّزاع.

ومع الوقت، بدا أن كلينتون أصبح يعي الحاجة إِلىٰ مقاربة أقوى، وخاصة أثناء مفاوضات «واي». وكان آنذاك في منتصف ولايته الثانية. هنا لم يكن إخفاقه أمراً مرتبطاً كثيراً بالشخصية، بل مرتبطاً بمنحى تعلمه. فقد ظل زمناً طويلاً جداً متكلاً على مقاربة مريحة ولكنها ضعيفة استراتيجياً. وأحاط نفسه بطاقم من المستشارين المتشابهين في التفكير، الذين أثبتوا جدارتهم، ولكنهم يتخلّفون عادة عن الأحداث. فعلى سبيل المثال، لم يكن فريق كلينتون مستعداً لتجديد علاقاته مع م. ت. ف إِلاَّ بعد أوسلو، ولو بذل دفعاً أقوى على جبهة سورية في عامي 1993 أَو 1995، لتحققت مكاسب حقيقية، ومرحلة

«فائدة الشك» المبكرة مع نيتانياهو قد أُهدرت، ولو بُذلت جهود مبكرة أكثر لتشجيع التنمية السورية الفلسطينية، وإجراءات الأمن المهنية الفعالة، لأعطت مكاسب مهمة. وإعادة التأكيد على مقولة ـ «لا نستطيع أن نرغب في السَّلام أكثر مما يفعل الفرقاء المعنيون» ـ كانت كلاماً فارغاً من الناحية الفكرية، وهذه حقيقة أبطأ كلينتون في إدراكها. والحق أن الملامح الخاصة جداً، لعمليَّة صنع السَّلام الإِسرائيلي ـ الفلسطيني، حيث تسود أوجه الاختلاف واللاتماثل، وحيث اختلال ميزان القوى بالغ الحدة، وحيث كانت المصالح الأَمريكيَّة متشابكة، كانت تتطلب دبلوماسيَّة رفيعة على نحو خاص، وهي أمر كان كلينتون عاجزاً عن الإحاطة به، ومستشاروه لم يقدموها له.

وأخيراً، إنه من السهل دوماً أن نضع اللوم، بسبب الافتقار إِلىٰ التقدم في عمليَّة السَّلام العربي ـ الإِسرائيلي، على كاهل عناد الطرفين وحدهما. من الصحيح بالتأكيد، أن كل رئيس أَمريكي ووزير للخارجيَّة، عالج هذه المشكلة، قد شعر بخيبة الأمل، جراء تصلّب الأطراف في وقت أَو آخر. وهناك دليل وافر على أن الخروقات التي تم تحقيقها، مثل اتِّفاقيات فك الاشتباك في عام 1974، وكامب ديڤيد عام 1978، ومدريد عام 1991، كان من الممكن متابعتها في مواجهة عزوف كبير من جانب العرب والإِسرائيليين. لقد دُفعت الأطراف على القيام بأشياء كانت تُؤْثر أن تؤجلها. ولم تخفف الولايات المتّحدة المخاطر فحسب، بل حاولت أن تشحذ البؤرة، وتحدد المقايضات، وتمارس الضغوط الخفية، وتعلن في حملة متصاعدة، أن السَّلام في الشرق الأَوسط هو مصلحة وطنية أَمريكيَّة وحاجة إقليمية. ولو أن كلينتون نظر هذه النماذج بدلاً من أوسلو، ـ حيث اقترب الفرقاء بعضهم من بعض حقاً، انطلاقاً من الشعور بالحاجة المشتركة ـ لكان أكثر طموحاً وأقل تردداً، وأقل ميلاً للمراوغة، ولأمكن بعد ذلك أن يشار إليه، كصانع السَّلام في الشرق الأَوسط. وكما رأينا، فقد كان قريباً من تحقيق ذلك، ولكن شخصيته ومفاهيمه ـ وتردده الكبير

والذاتي خلال معظم عام 1998 ـ أبعدته عن القيام بمسعى شامل، عندما كان الوقت ملائماً تماماً لسلام عربي ـ إسرائيلي.

ومن حسن حظ كلينتون، وقد كان محظوظاً إلىٰ جانب جميع صفاته وعيوبه الأخرى، أن انتخاب باراك في أيار/ مايو 1999 قد منحه فرصة أخرى للقيام بما تفوق به في الشرق الأَوسط. كان يستطيع إقناع الفرقاء بمتابعة المفاوضات الصعبة. ولكن، في ضوء صعوبة حل قضايا النِّزاع العربي ـ الإسرائيلي، كان الأمر يتطلب ما هو أكثر من الإقناع الودي. كان إعادة بناء حقيقية للحوافز، من خلال وساطة فعَّالة، واستخدام العصا والجزرة. فعندما جوبه نيكسون وكيسينجر، وكارتر وفانس، وبوش وبيكر بتحديات مماثلة، أكدوا على المصلحة الأَمريكيَّة، وضغطوا على الطرفين المترددين كي يتحركا قُدُماً[35]. وكانت النتائج باهرة، ووضعت أُسسٌ لمساعي سلام تالية. أما كلينتون فلم يكن قادراً، في جميع مساعيه، إلاَّ على الوصول بالفرقاء إلىٰ حافة السَّلام، وعند تلك اللحظة الحاسمة، أوشك العنف الذي نشب في أواخر عام 2000، أن يطيح بالكثير مما تحقق في السنوات السابقة. والإرث الذي سعى إليه، وهو إنجاز سلام شاملٍ في الشرق الأَوسط، قد فاته، وكان ذلك مرده، جزئياً على الأقل، إلىٰ أسلوبه السياسي المتردد، وبذا، فقد وقعت على عاتق خلفه جورج و. بوش محاولة تحقيق الهدف الزائغ للسلام بين إسرائيل وجيرانها العرب.

---

(35) بعد انتخاب باراك دعا هنري كيسينجر إلىٰ وساطة أَمريكيَّة لانتهاز «فرصة لا سابق لها لتحقيق اختراق في سلام الشرق الأَوسط» انظر مقالة «U. S. Mediation Essential» واشنطن بوست، 19 تموز/ يوليو، 1999، ص A19.